

كتاب الهلال



أعلام الفن القصصي

سلسلة
ثقافية
شهرية

● هنري توماس و دانالي توماس ● عثمان نويه



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٣٦ - محرم ١٣٩٩ - ديسمبر ١٩٧٨

No. 336 - December 1978

مركز الاداة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ » عددا ، فى جمهورية مصر العربية
وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا .
فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٥ جك - والقيمة
تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر
العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى
قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة
اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل
على الأسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



مكتبة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الفيلاف برشة
الفنان جمال قليب

أعلام الفن القصصى



تأليف

هنرى توماس و دانالى توماس



ترجمته عثمان نويه
راجعه محمد بيدوان



دار الهلال



الجزء الأول

المؤلفان

١ - هنري توماس ودانالي توماس أسمان مستعاران
للكاتبين الأمريكيين دكتور هنري توماس شنتكيند
(Dr. Henry Thomas Schnitlkind) ودانا أرنولد شنتكيند
(Dana Arnold Schnitlkind)

٢ - ولد هنري توماس شنتكيند سنة ١٨٨٨ ،
وولدت دانا أرنولد شنتكيند سنة ١٩١٨

٣ - رغم ضخامة إنتاج الكاتبين وسعة انتشاره ،
ووفرة ما نشر من تعقيبات عليه ، فقد لزم الناشر
والمعقبون الصمت عن سيرة المؤلفين ولعل ذلك كان
احتراما لرغبتهما ، لأنهما فيما يبدو يؤثران أن يقرأ
الناس لهما لا عنهما .

٤ - كان هنري توماس تلميذا للفيلسوف جورج
سنتيانا في جامعة هارفارد وقد ألف وحده (تيسير
الرياضة) و (تيسير العلم) .

٥ - كذلك انفردت دانا أرنولد شنتكيند بتأليف
(المجاهدون في سبيل الله) .

٦ - اشترك الكاتبان في تأليف مجموعة شائقة من
كتب السير ، قدر لها ذيوغ فريد في كافة أنحاء العالم

وترجمت الى مختلف اللغسات ، وهى : أعلام الفن
القصصى ، أعلام الفلسفة الغربية ، القادة الدينيون ،
أفذاذ العلم ، مشاهير الحكام ، عظماء الرجال ، أعلام
الموسيقيين ، فحول الشعراء ، أقطاب النقش ، شهيرات
النساء . الخ .

٧ - تمتاز هذه السير بالحياة والحركة والتشويق
مع الدقة العلمية . وهكذا وفقت الى الجمع بين صدق
العلم ورواء الفن .

• ((المترجم))

مقدمة

اجتاز فن كتابة التراجم كما اجتاز غيره من الفنون تطورات كثيرة . وتعددت مذاهبه كما تعددت مذاهب الفنون ، ومذاهب الأدب بنوع خاص .

فقد مضى حين من الدهر كانت فيه سير القدامى لا تتناول الا بالتمجيد والاكبار، حتى ليخيل الى القارئ ان اصحاب السير انصاف آلهه ، لا سبيل الى اللحاق بفبارهم ، او احراز بعض ما احرزوا من علم او فن . ولسنا ننكر ان هذا التقديس الذى لم يكن له مبرر فى غالب الأحيان ، قد صدر الى حد ما عن دوافع نبيلة ، وتقاليد كريمة ، منها التنزه عن نبش قبسور الموتى ، وعدم التعرض لذكراهم بما يسوءهم ، بعد اذ طواهم الموت ، وصاروا بخيرهم وشرهم الى حيث يرثى لهم الاحياء الذين كانوا يجدون عليهم ويحققون ، كما ان هذا التقديس يرجع كذلك الى حد ما الى ذلك الجلال والوقار الذى يسبغه الموت وبعد الانسان فى الزمان . على ان الناس حين شب ادراكهم عن الطوق ، من اثر ما استحدث من علم ومعرفة ، قد تغير رأيهم فى علوم القدامى ومعارفهم . واستتبع ذلك تغيرا فى النظر الى اشخاصهم واسلوب تناول سيرهم .

وكذلك رايئسا بعض كتاب السير فى اواخر القرن

الماضي (١) يجردون الأعلام القدامى مما أضفى عليهم من جلال جعلهم أقرب الى الآلهة ، وأبعد عن طبيعة البشر ، ويحاولون تصويرهم تصويرا واقعيا ، أو قل تصويرا بشريا لا تصويرا أسطوريا .

وكان هذا يرجع الى ما كشف تقدم العلم من أخطاء القدامى من جهة ، والى ما استحدث في علم النفس خاصة من نظريات التحليل النفسى من جهة أخرى .

ومن أسف أن هذا الاتجاه قد شابه ما يشوب كل انتقاض كامل على القديم من مبالغة واسراف . فمزق الأقدمون أربا ، لأن تمجيدهم قد أدى الى تقديس نظرياتهم وعدم تطورها ، مما عاق تقدم العالم قرونا طويلة ، ويصدق هذا بنوع خاص على تقديس أرسطو وأثره في تعويق الفكر عن التقدم ، بحيث وصف بعض كبار الكتاب أرسطو بأنه أعظم كارثة حلت بالعالم .

على ان « الحكمة ليست كلها جديدة ، ولا الحماسة كلها قديمة » كما يقول برتراند رسل . والمبالغة في التعيب ، كالمبالغة في التمجيد أمر تجفوه روح العلم الصحيح . والطريق السوى هو أن تطبق مكتشفات علم النفس ، وبخاصة التحليل النفسى ، في دراسة السير ، وهذه المكتشفات فى ذاتها تنهى عن الاسراف فى المدح أو القذح لأنها تنتمى الى ميدان العلم لا الى ميدان القيم .

وثمة أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية ، وهو انه ينبغى لنا أن نزن أصحاب السير بموازين عصورهم ، وعلى ضوء مآساد بلادهم على أيامهم من تقاليد وطرائق

(١) حمل لواء هذه الحركة صمويل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) وتابعه فيها برنارد شو ويطلق عليها فى الادب الانجليزى حركة التجريد من الخداع .. Debunking Movement

في العيش وأساليب في تناول الحياة .

فمن غير الانصاف مثلا أن نزن جاليليو بميزان عصر نيوتن أو نزن نيوتن بميزان عصر أينشتاين . والا كنا جاحدين لفضل أولى السبق ، آخذين إياهم بارتفاع صرح المعرفة على يد أخلافهم ، عما كان على عهدهم ، منكرين عليهم فضل السابقين والرواد .

فالخير اذن في التوسط بين الاسراف في اضمفاء الجلال والاسراف في التعرية عن الجلال . وهذا ماتوخاه في رأينا مؤلفا تلك المجموعة من السير التي بين يديك . ففي كل سيرة تقويم نفسى للكاتب ، وان صيغ بأسلوب قصصى جذاب ، تقويم على ضوء ما اكتنف عصره من ظروف وعقائد وطرائق في الحياة .

وانى اعتقد ان دراسة تراجم اعلام الفن القصصى لها قيمة خاصة . لأن القصاص يعيش في داخل نفسه ويعيش في مجتمع . فينفعل بما ينعكس عليه من حياة الجماعة ويكتب قصصه مرآة أو انعكاسا لهذا الانفعال . ولهذا كانت سيرة القصاص تفسيرا لبعض ما يكتب ، وكانت كتابته تفسيرا لبعض جوانب سيرته . وهذا التجاوب بين نفس الفنان وبين آثاره تراه جليا في هذه المجموعة من السير .

ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من مكتشفات التحليل النفسى قد سبق اليها كتاب القصة الافذاذ عن طريق تأملاتهم الفلسفية . فان الأستاذ فلوجل (١) أستاذ

(١) فى كتاب الانسان والاخلاق والمجتمع . تعريب عثمان نويه - وهو من سلسلة الالف كتاب التى تصدرها ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم . -

علم التحليل النفسى بجامعة لندن سابقا يستخدم بعض المشاهد من قصص الأعلام ليعرض بها بعضا من أحدث نظرياته فى التحليل النفسى عرضا ملموسا ينبض بالحياة.

والكتاب الذى بين يديك يشتمل على سير عشرين كاتباً من أبرز كتاب القصة فى العالم منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاشيو فى القرن الرابع عشر حتى توماس هاردى فى القرن العشرين . والكتاب العشرون ينتمون الى مختلف الجنسيات . فمنهم الايطالى والأسباني والانجليزى والفرنسى والأمريكى والارلندى والروسى . وقد صيغت سيرة كل كاتب فى قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها ، تحمل فى تضاعيفها لمحات من خير كتابات صاحب السيرة . وفى ختام كل قصة قصيرة ثبت بأسماء أهم مؤلفات الكاتب ليستطيع القارئ بعد اذ عرف أعلام الفن القصصى أن يوثق صلته بآثارهم على نحو مباشر . وذلك هو الهدف النهائى لهذا الكتاب . والكتاب يعتمد فى تصوير شخصيات الأعلام على الحقائق المادية التى تؤدى الى رسم الصورة حية ناطقة ، تجمع بين الطرافة والفائدة . وتتناول الكتاب من حيث هو انسان فتتعقب أخطاءه وجهاده حتى تبوأ المكانة التى سلكته فى الخالدين .

وبعد : فإذا كان بعض كتاب السير يتسترون على أخطاء الموتى تجملاً ، وكان غيرهم يقتسم على الموتى قبورهم توقفاً ، فإن منهج هذه المجموعة من السير التأدب فى دخول قبور الموتى . ودراسة محتوياتها دراسة نزيهة القصد . ثم مغادرة القبور بعد لثم الأعظم العطران .

محمد بدران

١٩٥٦/٣/٣٠

مقدمة المؤلفين

حينما استحال الشاعر الصغير والتر سكوت قصاصا كبيرا ، خجل من عمله الجديد . وكتب يقول « لن أنسب ويفرلى الى نفسى فلست على ثقة من انه يليق بمن كان مثلى من رجال القانون ان يكتب القصص » فقد كان القصص يعد في أيامه فرعاً منبوذاً من فروع دوحة الشعر . اذ كان يمثل الابن البغيض في الأسرة الأدبية .

كتب محرر مجلة أدنبرة يقول « ان القصص ليس بالسّمك ولا اللحم . وليست له قيمة خلقية ، لأنه مسرف في التسلية والترفيه » .

أما اليوم فقد نما القصص واكتمل . لأنه أعطانا روائع تعد في صف أنبل أنماط الأدب . فالقصص الحديثة ، حتى في أدنى مستوياتها ، بساط سحري يحملنا على النسيان المبارك . وهي بهذا تمنحنا المناعة على تحمل صروف الزمان . وهي في أسنى مستوياتها عرض متحرك ملموس للفكر الفلسفي . وهي في أحسن صورها تجسيد نثري للملحمة الشعرية القديمة . قال امرسون « كل قصة عظيمة مدينة لهوميروس » . « فالقصة تشبه قصائد هوميروس في أنها لا تقتصر في

أعلى مستوياتها على أن تكون نموذجاً للفلسفة كما تطبق
في الحياة بل هي كذلك صورة أدبية تنتظم كل الصور
الأخرى - الشعر والتمثيل والتاريخ والسير والعلم
والاجتماع والسياسة والمغامرة والدين والفن - فالقصة
العظيمة اليوم - أو في أي وقت آخر - هي صورة كاملة
للإنسان ، صورة تشمل جسمه وعقله وروحه ، وهي
شيء آخر فضلاً عن كل ما ذكرنا ، هي صورة تكشف
عن إنسان واحد بنوع خاص ، هو القصاص نفسه .
فأجود جزء من القصة هو ذلك الذي يتجلى فيه
القصاص .

ولم يكن هدفنا في روايتنا سيرة كل من القصاصين
الذين يشتمل عليهم هذا الكتاب أن نقتصر على تصوير
الرجل من الخارج ، كما يرى من خلال حقائق حياته ،
بل أن نصور كذلك الرجل من الداخل كما يرى من خلال
أفكار عقله . وقد سعدنا إذ وجدنا أن كل قصاص عظيم
إذا نظر إليه من هذه الزاوية المزدوجة تراءى هو نفسه
بطلا لقصة عظمى .

هنري توماس
دانيال توماس

جيو فاني بوكاشيو

(١٢١٣ - ١٣٧٥)

- ١ -

كانوا يدعونه (جيو فاني الهادي) لقدرته على الاحتفاظ بروح المرح والخير اذا الت به الخطوب . وقد تطامنت له تلك القدرة العجيبة على ان ينقل الى الناس بشاشته ومرحه . فهو ان كان في صـحبة نسوة سئمن رتابة الحياة وتشابهها جعل همه ان يرفه عنهن ويخرجهن من السأم . ولم يجد في العالم شيئا أجلب للترفيه من قصة الفرام الجيدة . فقد لاحظ ان المرأة لا تبلغ أوج المتعة الا اذا لعبت بنار العاطفة . فان خشيت ان تحرق النار اناملها أصابت نفس المتعة تقريبا من قراءة أخبار نساء أخريات قد لعبن بهذه النيران . وكان يقول : « ان هذا الحب بالتوكيل » يكاد يبعث كل النسوة التي يبعثها الحب المباشر . ولا يعرض صاحبه لشيء من مخاطره . فالذي تفعله النسوة المفامرات تحب غير المفامرات ان يتخيلن انهن فاعلات مثله . وهكذا استطاع بوكاشيو بمحاولته تغذية خيال اخواته الأبعد عن المفامرة ان يبدع فن القصة الحديثة .

وقصة بوكاشيو أشبه بصورة مصفرة لمجالي الطبيعة الإيطالية في فتنها وتنوعها غير المحدود . ضحكات فضية في ليلة مقمرة ، ومروج رزينة الجمال ، وجداول

تستلقى وقد تدافعت فيها الفكاهة ، ومنعطفات على الطريق مفاجئة ، واستشراف روائع لم تخطر على قلب ، قلبه وزوابع الفيرة الثائرة ، وسحب عابرة من الأسى الموقوت ، وشمس الأخوة العالمية التي وسع عناقها كل شيء . هذه هي العناصر التي يبدع منها قصصه .

وانعالمه لعالم شديد اليقظة ، يحف به مجد الشمس في الظهيرة وأرض القرون الوسطى زاخرة بشخصيات أحياء شرايينهم مليئة بالدماء . . . من رجال ونسباء يتحدثون عن طبع ويحبون في اشتها ، بحيث أننا لانزال نراهم ونسمعهم ونستمع بهم من خلال تلك القرون التي تفصل عالمهم من عالمنا . فقد كانت قصص بوكاشيو تصور الحياة في أمانة وصدق ، حتى ليقول عنه أحد النقاد « ان الله حين خلق جيوفانى قد خلق العالم مرة ثانية » .

- ٢ -

كان جيوفانى بوكاشيو ، ابنا غير شرعى لتاجر من فلورنسا . وقد ولد في عصر ديني ، عصر دانتي (١٣١٣) . وماكاد يلقن صوفية الكنيسة حتى استبدل بها واقعية الحياة ، وسار متهاونا في تعلمه بالمدرسة . فما هو الا ان تذوق الآداب القديمة تدوقا سريعا ثم تتلمذ في عامه العاشر لباريسى من رجال الأعمال وصار بعد بضعة سنوات وكيلا تجاريا متنقلا الأبيه ولكن به الى القراءة نهما وعن التجارة صدوقا ويقول أبوه شاكيا (ان الشقى الصغير ليشتري من الكتب أكثر مما يبيع من السلع) كان تلميذا بطبعه فأصاب من العلم بالأدب ما لم يصب معظم خريجي الجامعة في عصره . ولم يقف عند توثيق

صلته بالأدب ، فقد وثقها بالحياة أيضا . فاستوت
كفايته في قرض الشعر ، وحذقه أفانين الغزل . وهام
بصحبة الكتب كما هام بصحبة النساء واما تجارة
بوكاشيو (فليعن بها أبى الذى يجرى فى عروقه الذهب
المذاب أما عروقى أنا فيجرى فيها الدم الأحمر) .

فلما خاب أمل الوالد فى ان يجعل من ولده رجلا
أعمال ، قرر ان يجعل منه محاميا . فبعث به الى جامعة
نابولى ، وهناك جعل جيوفانى يجد فى اعداد نفسه
لكل شىء خلا الدراسات القانونية ، وكان أبوه يمنحه
فضلا من المال ، فشرع يؤلف ما بين نفسه وبين ثمار
المعرفة غير المألوفة ، والثمار المحرمة منها خاصة ،
وكان شباب عصره الأمل منه الى الجد ، ينقبون عن
أسرار الجحيم . والمطهر والجنة . أما بوكاشيو فقد أضاف الى
الأسرار الثلاثة المقدسة سرا رابعا ، وكان هذا السر عنده يفوق
الأسرار جميعا فى أهميته . . هو سر الأرض لأنه يعوقها
جميعا فى انسانيته . ذلك بأن دانتى وبتراارك قد لفتا
العالم الى الحب الروحى ، حب بياتريس ولورا ، فوجه
بوكاشيو بصر قلبه الى حب مادي لماريا ، وكانت ابنة
غير شرعية لملك صقلية . وكان فى عامه الثامن والعشرين
حين وقع فى أسر هذا الغرام .

وقد أطلق عليها ذلك الاسم الشعرى Fiammelta
ومعناه (الذهب الصغير) وألقى بنفسه فى غير حذر
يلتمس الدفء خلصة من نار حبها . غير أنه أجزل لها
المكافأة على مودتها فكتب باسمها قصة وخلدها اذ
جعلها من الشخصيات الرئيسية فى العشریات
(ديكاميرون Decameron) .

ومع أنه قد أخلص نفسه لهذه البقعة وهذه اللحظة فهو لا يزال ابناً أميناً لعصره شديد الاهتمام بالحياة الأخرى . فكتب سيره لحياة دانتي ولكن الكتاب فشل ذلك بأن بوكاشيو كان قد أوغل في الملهاة البشرية بحيث لم يفهم ملهاة دانتي الإلهية . فان روحه لفي عمى عن اجتلاء صورة واضحة للرجل الذي حاول أن يصفه . فهو يعجب بشعر دانتي لكنه لا يخفل بلاهوته . فاذا حاول أن يبعث الحياة في دين دانتي لم يبتعث غير دخان غامض مضطرب فهو يشير إلى اللاهوت بـ (شعر الله) لكنه في ريب من وجود الله فارتاب في حقيقة شعره فجاءت (حياة دانتي) نغماً جميلاً في الأدب الإيطالي لكنه نغم غير متميز ، هو محاولة لتمجيد عقيدة القرون الوسطى قام بها رجل لا يؤمن بها في قرارة نفسه .

واتبع بوكاشيو (حياة دانتي) بكثير من المحاولات الأدبية الكبرى واستمر يعزف لحناً غير متميز . كان أسلوب عصره ثقيلاً مصطنعاً مزوقاً ولكن بوكاشيو بسيط صادق غير متكلف . فان حاول التصنع كما يفعل معاصروه أصيب بالفشل .

فنثر عصره المتكلف وشعر عصره المهول كانا غريبين في فمه الضحك وقد كتب قصة طويلة يظهر بها علمه هي فيلوكولو Filocolo فمضت القصة تتعرج كأنها نهر طويل بطيء يتعثر بين شطآن من الطين الثقيل . فهي تخلو من الجمال خلوا تماماً ذلك بأن بوكاشيو لم يكن حتى الآن قد تعلم الكتابة بالأسلوب الصادق الطبيعي الذي يستخدمه في حديثه ، فهو يجنح إلى توريط نفسه في تلك العبارات المعقدة التي يصطنعها المتعاملون . من ذلك قوله (الناس الأولى في فجر حياتهم

قد اعتدل شراع عقولهم للرياح السارية من المروحة الذهبية التي صنعت من ريش ولد سيثريا (حين يكون كل ما يريد قوله (الشباب الذين يعشقون) وفي الفيلوكولو لايقبل المساء في هدوء قط وانما يقبل (اذ تهدر الأبواق. وتتألق الشمس الفاربة بينا جياذ أبولو المتوثبة وقد استشعرت الحر من جهادها طول النهار تدفع بجسومها الملهبة في أمواه المحيطات الغربية) . وأشخاص هذه القصة مخلوقات هائلة لاتكلمنا قط في صوت طبيعي بل تصيح بنا دائما من مكبر صوت . وهم لا يستطيعون ان يطلبوا جرعة ماء دون القاء خطاب طويل مزهر عن ظمئهم فلفة بوكاشيو لاتزال ثقيلة صارخة الألوان . فهو يحاكي أسلافه ممن يقلون عنه شأنا بدلا من التعبير عن ذاته الأجل شأنا . فيؤثر العبارة الأغريقية أو اللاتينية المركبة على مرادفتها الإيطالية البسيطة لذا فان بوكاشيو في قصة الفيلوكولو ، وهى التجربة الأولى الساذجة للقصة الحديثة ، يبدو عالما من الطبقة الأولى باللفات القديمة غير انه شاعر عاطفى من الطراز الثانى . ومع ذلك فان (فيلوكولو) على ثقلها قد نجحت نجاحا ماليا . فالعالم كان مهيا لقبول القصص وقد عرّف بوكاشيو فى الأدب لحننا جديدا رضى عنه ذوق الجمهور فتشجع لرواج قصته النثرية . وهو يحاول الآن أن يكتب قصة شعرية فيؤلف كتاب تسبيد وهو ملحمة منظومة على غرار الياذة فرجيل وكان حظه من النجاح والخلو من الحياة مثل حظ (فيلوكولو) فهو كتاب عن الأبطال كتبه رجل لا يؤمن بالبطولة فجاءت تسبيد صورة رائعة ولكنها ميتة ، هى حفل قديم مزخرف قد استحال الى حجر . فليس فيه حركة ولا حياة . . انها تشمل كل العناصر الجميلة التى تتطلبها القصيدة ، عدا الشعر ،

وهي تنطوي على مقدرة أدبية ولكن تعوزها شرارة الحماسة .

على أن بوكاشيو تعلم تدريجا كيف يكتب بقلمه كما يكتب بعقله فيأتى كتابه التالى فيلوستراتو اقرب نوعا ما الى حياة عصره .

ويروى بوكاشيو فى هذا الكتاب قصة كرسيد وترويلس فيقدم الينا فيه لأول مرة قصة شخصين يحملان اسمين اجنبيين وعقلين عصريين . كان حبهما عاطفة ارضية صحيحة ، خالية من كل المبالغات البيانية والصوفية العلية التى حجرت مشاعر اشخاص بوكاشيو الاولى . لقد عاد بوكاشيو الآن من جولاته فى عالم الادب واقام يدرس الحياة . فينقل بصره من التماثيل الرخامية الى اشخاص احياء يعرفهم اتم معرفة ويحبهم اشد حب . فيهتدى بوكاشيو الى نفسه آخر الامر بعد تعيث لبث عدة سنين . فنبدأ هنا نرى لمحات من المتهمك المرح ، الفيلسوف الطيب الذى تعلم كيف يضحك مع الناس بدلا من أن يضحك منهم . انه يصيبهم بفكاهته اللاذعة ثم يخشى أن يكون قد آذاهم فيربت عليهم بفكاهته الوداعة .

فاذا انتقلنا الى تقدير عبقرية بوكاشيو شعرنا فى فيلوستراتو اننا نقرب من هذه العبقرية ، اذ نرى فيها قليلا من الأوراق المبعثرة سابحة نحونا من الخمائل السحرية لعبقريته التى سنجتليها فيما بعد . ففيها نسمع صوت بوكاشيو الحقيقى الذى سيخلق العشریات Decameron . فيحدثنا عن الحب فيقول (ما اعجب هؤلاء البخلاء البائسين الذين ينعون على العشاق والذين يصرون على ان كسب المال خير من كسب الحب) .

فلندعهم يسألون أنفسهم هل مدخرات العمر كله
قد جلبت من المتعة مثل ما تجلب لحظة واحدة من
لحظات الحب . سيجيبون ان نعم ولن يكونوا صادقين
ولسوف يضحكون من الحب ويدعونه (جنونا اليما)
لكنهم اذ يجمعون أموالهم يسممون لروح السرور
الحقة ان تفلت من أيديهم . ان مالهم قد يضيع في ساعة
ولكن الحب اذا ذقته مرة فقد جلب لك المتعة الى
الأبد ألا فليتعس الله البخلاء وليرد على العشاق ما
أصابوا من مال) .

ان بوكاشيو العالم يتحول تدريجا الى جيوفاني
الشاعر فهو يتأهب للتخلص من نسبته لأبولو ، اله
المعرفة ، ليعتنق دين فينوس الهة الحب ، وهو في كتابه
التالى *Amorosa Visione* يخطو خطوة أخرى في
هذا الاتجاه ومع ان هذا الكتاب قد جاء من وحي
قصيدة دانتي فهو مع ذلك ليس (بالصورة المجردة
لسماء الكاتب الخيالية) بل هو على نقيض ذلك صورة
مادية جدا لأرض واقعية . فدانتى قد تسامى عن اللحم
الى الروح . وأما بوكاشيو فينزل من الروح الى اللحم .
وفي هذا التنزل يقل تساميه المبهم الفامض وتزيد
انسانيته الواعية البصيرة فنساء بوكاشيو الدنيويات
أمتع من ملائك فردوس دانتي لأنهن أقل كمالا . واذا
كانت ملائك دانتي يثرن امجابنا فان نساء بوكاشيو
يثرن عطفنا فما أشبههن بنا لذا فما أحبهن إلينا .

ان بوكاشيو يبشر بانجيل جديد . . انجيل المحبة
الانسانية « فالحب لم يعد خطيئة بل صار متعة » .
ويتعلم بوكاشيو كيف يصور الأنثى الخالدة في كل سحرها
الجامع المخطيء ويبدد هالة الفضل والدمائة التى كانت

تحوط نساء جيله ، وهو لا يظهرنا على ما تنبس به شفاههن
من عبارات بريئة فحسب بل ويظهرنا كذلك على ما
تهجس به عقولهن من خواطر اقل براءة . فنحن في
القصيدة التالية نرى اول صورة امينة لامرأة ايطالية
في القرن الرابع عشر :

بجانب بئر صافية ، وسط حقل صغير .

زاخر بالعشب الأخضر والازهار من شتى الألوان ،
جلست ثلاث فتيات يروين (كما علمت) قصص غرامهن .
وقد هصرت كل منهن فننا ليحجب وجهها الحبيب ،
واسبع الورق الأخضر ظله على الشعر الذهبى .

وامتزج اللونان البهيجان . . وقد تخلله في رفق نسيم
وادع طالما أنار وطالما أخبى . وبعد هنيهة قالت احداهن
(لقد سمعتها) ترى ! لو حدث قبل أن تدق الساعة
التالية ان حضر عشاقنا الى هنا اليوم .

اتظنان اننا ينبغي ان نهرب او نخاف ؟ . . فأجابتها
الاخريان :

من مثل هذا الحظ (الباهر) . تكون الفتاة حمقى لو
انها فرت .

هذا الاعتراف الصريح بعاطفة طبيعية . يمثل النغم
الاول في السيمفونية الواقعية . . .

ويعزف بوكاشيو في Corbaccio نغمة أخرى أوضح
من تلك في صراحتها الواقعية ، لقد خدعت الشاعر في
حبه أرملة طروب . فكان أول ما خطر له ان يزهرق
روحه بخنجره . ولكن حبه الشديد للحياة يحول بينه
وبين ذلك فيقرر خطة أحكم هي أن يقتل معشوقته

الخائنة بسيوف تهكمه .

وفكرة القصة ساذجة الى حد ما . ولكن التهمك فيها
جيد فان بوكاشيو يقترب شيئا فشيئا من روح
المشريات Decameron .

- ٣ -

ويهدى بوكاشيو الى نفسه أخيرا في الديكاميرون .
انه هنا في ميدانه الحق وعالم الديكاميرون هو عالمه .
وجاءت شخوص هذه القصص كشخوص الحياة الواقعة
فقد كفوا عن تحليل أنفسهم وأخذوا يتمتعون أنفسهم
فهم لا يفكرون تفكيرا حرا وحسب ، بل هم كذلك
يتصرفون تصرفا حرا . فينظرون الى الحياة نظرة
تستوى فيها الصراحة والطيش . واذ كانوا لا ينتحلون
ثوب أصحاب الرسائل الاصلاحية ، فقد قنعوا من
العالم باغماض عيونهم عن شروره . وهم لا يؤمنون الا
بمبدأ واحد (عش ودع غيرك يعيش) .

واذا كانوا راغبين عن التضحية بأنفسهم من أجل
الآخرين فهم كذلك راغبون عن التضحية بغيرهم من
أجل أنفسهم . لقد تخففوا من تعصب العصر الوسيط
وتخففوا معه من عدم التسامح الذي كان طابع هذا
العصر . فهم لا يصمدون في حركاتهم عن أى روح
صليبية ، ولا يبتغون ان يحيلوا أحدا الى دينهم أو أن
يتحولوا هم الى دين غيرهم وهم لا يكثرثون بالماضى أو
القابل سواء بسواء . وهم على استعداد الآن بشتروا
متعة اليوم بذكريات الأمس ووعود الغد . وتصور
أحدى قصصهم المحبوبة موقفهم ذاك أحسن تصوير .

تقول هذه القصة : ان الفيلسوف (ديوجين) حين لقي الاسكندر حاول لومه على اطماعه الحمقاء فسأله : بعد ان تغزو اثينا .. ماذا تنوى ان تفعل ؟ .

أغزو فارس .

وبعد فارس ؟

أغزو مصر .

وبعد مصر ؟

أغزو العالم .

وبعد غزو العالم ؟

أستريح وأستمتع .

فسأله : وماذا يمنعك أن تستريح وتستمتع الآن ؟

وكل أشخاص الديكاميرون مصممون على أن يستريحوا ويستمتعوا الآن وليس لديهم احساس بالمسئولية العامة فحين انتشر الطاعون في فلورنسا (١٣٤٨) لم يشعروا بوجوب البقاء في مدينتهم ومساعدة الضحايا . بل وجدوا الأمتع لهم والأسلم أن ينتقلوا الى الريف حيث يستطيعون قضاء أيامهم في الطعام والشراب والفزل ورواية الحكايات اللاذعة .

(نست احفل بغير لحظات الحياة الصافية) .

تلك الحياة السطحية التي لا تبالى بالعواقب الدنيوية والتي لا يزعج صفاءها أى عمق فى الاخلاص أو ايفال فى البفض . هذا النوع من الحياة هو ما تجده مصورا تصويرا ممتعا فى (الديكاميرون) لجيوفانى الهادىء . لقد لبث العالم قرونا عدة يفمره الاحساس بالخطيئة الأصلية والخوف من العقاب المقبل . لقد نسي الناس قدرة

الضحك على التفريغ عن النفس فعلمهم بوكاشيو كيف
يضحكون .

والواقع ان قصصه في الديكاميرون قد رويت من قبل،
فهى ليست من خلق بوكاشيو . بل هى أشبه بقصص
(ألف ليلة) فى انها نتاج اقطار كثيرة ، وعقول كثيرة .
ولكن بوكاشيو قد أخذها من وضعها الساذج الأملى
فأجاد تشكيلها وبث فيها الحياة . وليست الديكاميرون
مجموعة لا نظام لها من قصص لا رابطة بينها . بل هى
وحدة محكمة أقيمت على نظام من المنطق . ويحوى
الكتاب عشرة أشخاص رئيسيين بينهم سبع سيدات
وثلاثة رجال . وقد فروا من مخاوف الطاعون الى حفلة
تنكرية خيالية . ولكى يسروا عن أنفسهم عشرة أيام
جعل كل من اللاجئين يروى قصة فى كل من الأيام العشرة .
فكانت تروى كل يوم عشر قصص اذن ، فكان المجموع
مائة قصة . وكانت كل مجموعة يومية من عشر قصص
تشابه فى موضوعها الى حد ما . فالقصص التى نسمعها
فى اليوم التالى مثلاً تدور كلها حول من قاسوا الشقاء
ولكنهم أصابوا النجاح آخر الأمر . وتسلط فى اليوم
الثالث بمغامرات أوغاد لا وازع لديهم من ضمير . وقد
كوفئوا على نذالتهم مكافأة لا مبرر لها ، ولكنها مكافأة
ممتعة . ويختص اليوم الرابع بالحكايات ذات النهاية
المحزنة . وأما اليوم السادس فيوم النوادر فتدور كل
نادرة حول اجابة بارعة . وكان الواحد منهم اذا أخرج
أو أوشك أن يقهر لجأ الى جواب مفحم قارص يقهر به
خصمه . ويقدم لنا اليوم السابع معرضاً من النسوة
الخائنات لأزواجهن . وهؤلاء الأزواج رجال لا أثر فيهم
للشبهة الزوجية فحققت عليهم خيانة الزوجات .

وهكذا . . ومهما يختلف موضوع كل من القصص فان الكتاب كله شلال واحد يهدر بالضحك وحتى الحكايات الحزينة لا تترك أثرا من ألم . فأسى بوكاشيو لا يعدو أن يكون ظلا يمتد على أرض بهيجة . ولولا اقتران سرور بوكاشيو بالأسى لكان سروره لا لون له ولا طعم . فاذا قيل : أن فولتير يضحك ليخفى دموعه ، أمكن أن يقال عن بوكاشيو انه يذرف دموعا بين الحين والآخر ليجعل ضحكك أشد للشهية ، وكان بوكاشيو صاحب تهكم ولكنه ليس صاحب سخرية عابسة . فهو يسخر من الناس ولكنه لا يصلأهم سعيرا . وهو يشر عليهم ضحكا طيب الروح وديعا يسرى في الناس بالعدوى حتى ليضطروا أنفسهم الى المشاركة فيه . انه يسخر من الحماسة ويحظى بحب الحمقى (انك يا صاحبي تؤدي في الحياة دورا هازلا غاية الهزل) ثم يقول وهو يهز كتفه في روح وادع (ولكن ألسنا كلنا ذلك الرجل)

- ٤ -

ومعظم حكايات الديكاميرون قصيرة . فهي تعد في عرف يومنا هذا من قصار القصص القصيرة . وهو يصور الموقف بقليل من الكلمات ثم يصل الى نهاية مباغتة من ذلك قصة أرمينوجر يمالدى ذلك الجشع الذى قال لصديق أريب من صحابه (أريد أن ينقش منزلى نقشا جديدا وأريد أن تقترح على موضوعا لهذا الرسم شيئا لم أره قط) فأجاب صاحبه على الفور (ارسم التسامح) . وقصة أخرى من نفس الطراز هي مغامرة الملك في منزل سيدة يحاول اغواءها وكان الملك يشتهى هذه السيدة فأرسل بزوجه الى الحروب

الصليبية ودعا نفسه الى منزلها لتناول العشاء وكانت السيدة لا تستطيع عصيان الملك وهى مع ذلك لا تريد الاستجابة لرغباته . فتعد مأدبة فاخرة تتكون من عدد من الدجاج قد اختلف تشكيكه وطهيته . فلاحظ الملك انه لم يقدم اليه غير الدجاج واصابه الدهش فقال (سيدتى : أليس يوجد فى البلاد طعام آخر؟)

يوجد يامولاى . ولكن النساء كالدجاج فهن على اختلاف المظهر سواء فى كل مكان .

فادرك الملك ما ترمى اليه السيدة وعاد الى زوجه فى هدوء . وفى هذا الطراز من القصص كان بوكاشيو يغير فى المفاجأة بأن يدفع بها الى مفاجأة أعظم ، فيكون الختام مفاجأتين لا واحدة . ومن خير الأمثلة لهذا النوع فى الديكاميرون قصة (ابراهام اليهودى) وكان ابراهام هذا شخصا بلغ من الأمانة والصدق بحيث تاق صديقه جيانودى شيفينى الى ادخاله فى المسيحية . ولكن اليهودى لا يستمع الى رجاء صاحبه . فهو لا يقدر ديننا كدينه وقد ولد يهوديا وينوى أن يعيش ويموت كذلك ، ويمضى جيانو فى جهوده رغم عناد اليهودى حتى يقبل اليهودى آخر الأمر أن يدخل فى المسيحية قائلا (ولكنى قبل أن أفعل أريد الذهاب الى روما لأرى البابا واتدبر سلوكه شيئا ما . واتدبر سلوك هؤلاء الكرادلة الآخرين ، فاذا بدوا لى بحيث أفهم من سرتهم أن دينهم يفضل دينى فانى فاعل ما تريد والا فأنا مقيم على اليهودية) .

فاذا سمع جيانو بذلك أصابه قلق شديد وقال لنفسه (لقد ضاعت كل جهودى ، لأن ابراهام لو ذهب الى روما ورأى شرور رجال الكنيسة فلن يقتصر على رفض الدخول فى الدين المسيحى بل سيتحول الى اليهودية ولو

كان أصلا من المسيحيين) لذلك حاول أن يصرف صديقه عن الذهاب الى روما . لكن اليهودى أصر على ما اعتزم ، فأخرج حصانه وذهب الى روما وأخذ في دراسة أساليب القسس ولشد ما أدهشه انهم منغمسون في كل ألوان الرذيلة وانهم في مجموعهم أشد حرصا على بطونهم منهم على أى شيء آخر . وجدهم يحبون المال بحيث لايتخرجون ان يصيبوه لا من دماء الناس عامة فحسب ، بل من دماء المسيحيين أنفسهم . هذه وأمور أخرى لن أذكرها صدمت شعور اليهودى ، وكان شخصا أريبا وادعا ، فاكتفى بما رأى وعاد الى بلاده .

قد يبدو ان هذا ختام منطقى للقصة ولكن بوكاشيو الضاحك السن أبدا ينعرج بالقصة الى مفاجأة ختامية تحيل قصة جيدة وكفى الى احدى روائع الأدب . فابراهيم حين يعود من روما يخبر صاحبه انه قرراعتناق المسيحية برغم ماشهد (لأنه اذا كان رجال الكنيسة يبذلون هذا الجهد لقتل الدين المسيحى واذا كان الدين المسيحى ينمو فى سرعة كبرى رغم كل ماعملوا لتشويهه فمن اليسير أن أرى ان روح الله تراهه لأنه أصبح الأديان وأقدسها) .

ويستطيع جيوفانى الهادىء أن يتسامح لا فى معتقدات الناس وكفى ، بل وفى أخطائهم أيضا فموقفه العام نحو (خطايا الحياة الصغيرة غير الضارة) هو (أسعد الله من يحظون بها) فاستمتع وامتع حيثما استطعت فليس عارا أن تمتع نفسك بشرط أن تشرك غيرك فى متعتك واذا ضبط أشخاصه فى أشد لحظاتهم حرجا لم ينجلوا قط من أنفسهم ، فهم يدركون كما يدرك الرياضيون الطيبون ان موقفهم مثير للضحك وهم على استعداد

لان يهبوا لمن ضبطوهم وقتا سعيدا .

ان بوكاشيو أمير شعراء الضحك فهو يرغب عن تصوير الحزن لأنه يعجز عن بثه . فهو من السلاسة والدعة بحيث لا يستطيع ايداء أحد . ويقف بوكاشيو وحده في عصر عرف بالتعصب والحقد رجلا بريئا كل البراءة من التعصب والحقد على اختلاف صورهما . فعنده ان العنصر والطبقة الاجتماعية والعقيدة والأمة كلها كلمات تعنى شيئا واحدا . فكلها وحدة صغيرة من الناس تنتظمها اخوة البشر الكبرى . وكان شـعـوره الوطني فاترا غير مكترث . ذلك بأنه وطنى عتيد، وطنه العالم كله . فهو يسمح لكل انواع الناس من شتى البقاع بأن يشاركوا في هذه الزمالة العالمية الطيبة . فيحترم الفرنسيين كما يحترم الايطاليين ، ويحترم اليهود كما يحترم غير اليهود . ومن أجمل قصص الديكاميرون ، بل ومن أثنى الدرر في الآداب كلها حقا قصة (الخواتم الثلاثة) لبوكاشيو .

هذه الخواتم الثلاثة ترمز للاديان الثلاثة ، اليهودية والنصرانية والاسلام . وقد قال بوكاشيو فيها (كان لرجل عظيم من الأغنياء خاتم فائق الجمال والقيمة . وكان يريد لهذا الخاتم أن يبقى لأسرته الى الأبد . فقرر في وصيته ان الذى سيعطى خاتمه من أبنائه فهو وراث الأب . فليعترف له بذلك ، ولينل من التوقير ما تحوله له رئاسة الأسرة) ويمضى بوكاشيو فيقول (مات الرجل الفنى حين جاء أجله . فورث ابنه خاتمه الثمين وظل الخاتم أجيالا كثيرة يتوارثه خلف عن سلف ، حتى انتهى الى رجل له ثلاثة بنون ، كلهم فاضل مستجيب لواجبه نحو أبيه فأحب الأب ثلاثتهم على السواء . وحرصا من

الآب على أن يخلف لبنيه الثلاثة هدايا متساوية القيمة كلف الجوهري بأن يشـكل خاتمين آخرين على غرار الخاتم الأصيل . فإذا أعاد الجوهري الخواتم الثلاثة كانت من التشابه في قيمتها وجمالها بحيث عجز الآب نفسه عن تمييز الخاتم الأصيل من سواه . فإذا حضره الموت منح كلا من أبنائه الثلاثة خاتما وعندئذ شجر الخلاف بينهم ، فكل يدعى أنه صاحب الخاتم الوحيد الأصيل .

فاختصموا إلى القانون ليقرر أيهم صاحب الحق . ولا تزال القضية منظورة لم يفصل فيها إلى اليوم) ويختتم بوكاشيو قصته بقوله : هذا ما حدث للأديان الثلاثة التي منحنا الله (الآب) . فكل أصحاب دين يعتقدون أنهم ورثة الله الحقيقيون ولكن لم يحكم الأينا بأنه صاحب الحق ، كما لم يحكم لأصحاب الخواتم . وإذا كان لا يستطيع أحد منا أن يتحقق أينما أثر إلى الله فالأليق بنا جميعا أن نحقق الشركة العامة بين بني الإنسان فتتعاون أمم العالم على الخير .

- ٥ -

كان بوكاشيو في أعوامه الباكـرة يلهو بالدنيا ، وهو في أعوامه التالية يؤدي عملا جادا من أعمال الدنيا . فهو يلقي سلسلة من المحاضرات عن دانتى ، ويسافر إلى أقطار شتى ليؤدي طائفة من المهمات السياسية . وكاد أن يترهب ويدخل الدير ليكفر بذلك عن الجريمة التي ارتكبها إذ ألف الديكاميرون . ولكنه أغرى بالعدول عن هذا الرأي فمات كما عاش مذنباً بشوشاً بدلاً من

ان يَخْتَم خيآته قديسا عابسا .
وانا اذا استعرضنا ذلك الرهط الجميل من مذنبى
العالم الباشين من الرجال والنساء الذين يحبون
ويصفحون ، ويأملون ان يحبهم الناس ويغفروا لهم ،
تبدى لنا جيوفانى الهادىء وسط هذا الرهط وقد
احتل مكانا غير هين .

فرانسوا رابليه

(١٤٩٥ - ١٥٥٣)

- ١ -

من عجيب الأمر ان أعظم الكتاب ، أولئك القادرين على الحديث عن غيرهم في فصاحة واسترسال، يلتزمون الصمت فيما يتعلق بأنفسهم . فنحن لا نعرف عن حياة رابليه الا قليلا . كما لانعرف عن حياة شكسبير غير القليل . فقد شفف كل منهما بتسجيل افكاره بحيث نسي ان يحدثنا عن نفسه . ويمكن سرد قصة رابليه في بضعة مئات من الكلمات .

كان فرانسوا رابليه مدينا بخشونته الصريحة السليمة الى دم الفلاحين الذي يتدفق في عروقه ، فأجداه الأقربون قد تخرجوا من طبقة الفلاحين والتحقوا بالطبقة الوسطى . وكان أبوه (انتوان رابليه) ثريا من ملاك الأرض ومحاميا في (شينون) تلك المدينة التي بدأت فيها جان دارك حياتها المجيدة قبل ذلك بنصف قرن. وولد فرانسوا سنة ١٤٩٥ ، ولا يعرف شيء عن طفولته ومراهقته . ولا نلمح صورة واضحة له الا وهو في السادسة والعشرين من عمره ، فنراه شابا طويلا رقيقا مرحا بالغ الوسامة قوى الجبين ، عظام خديه بارزة قوية، وعيناه رائعتان ، ومعارفه تبعث على الدهش ، ومن المشكوك فيه ان رأسا آخر في هذا العصر قد استطاع استيعاب مثل هذه الدخيرة الضخمة من المعلومات .

ولا يعرف على التحديد أين تلقى تعليمه ، وأن كان من المعروف انه انضم عام ١٥٢٠ الى اخوان القديس فرانسيس في «دير بوى سنت مارتن» ولا يعلم أحد سبب دخول رابليه في تلك الطائفة .

فان شخصيته المرحية لا تبدو متلائمة مع حياة التواضع والفقر التي يطلب الى الاخوان الفرنسيسكان التزامها . ولعله اتخذ هذه الخطوة ارضاء لبعض اصدقائه الذين سبقوه الى الانضمام الى الفرنسيسكان . فلقد كانت الصداقة هي العاطفة القوية التي تسود حياته . وكان مما يسره أعظم السرور أن يمنح الآخرين السرور وفضلا عن ذلك فان حياة الدير لم تكن خالية مما يرضى رجل المعرفة . فهي تمنحه الفراغ ليتعلم ويكتب ، وتخليه من المسئوليات المالية . فاذا تصادف ان كان من محبى المفامرة كما هو من محبى الدرس ، مكنته الكنيسة من ان يسافر مبشرا ، او وكيلا عنها في أعمالها العلمانية . فالدير لم يكن باختصار مكانا غير متلائم مع رجل أحب المعرفة وأحب الحياة أيضا . فلم تكن الالتزامات الرتيبة المفروضة على حياة الدير بالغة الطول ولا بالغة الدقة ، فاستطاع رابليه في دير (بوى سنت مارتن) أن يتابع هوايته الأدبية على النحو الذى يرتضيه قلبه . وكانت مدينة فونتناى التي يقع فيها هذا الدير قد أصبحت مركز دائرة ثقافية من الانسانيين ، اعنى هؤلاء الرجال الذين حاولوا تطبيق ثقافة الماضى السامية على حاجات الانسان الحاضرة . وكانت الحلقة تجتمع بالهام من أبيها الروحى أرزم Erasmus فى حديقة الحساكم تراكو André Traquau حيث تحتسى نبيدها فى ظل الغار ، وتتناقش فى الشعر والسياسة والموسيقى والدين والفن وما بعد الطبيعة والأخلاق والقانون .

انضم رابليه الى تلك الحلقة على حسدائه سينه ،
وسرعان ما أصبح رئيسها الفكرى غير منازع . . وفى تلك
الائناء كانت ثور عاصفة من اختلاف الراى فى فنجان
مناقشاتهم الرسمية ، ذلك الفنجان الصغير الهادى .
وكان الخلاف يدور حول النساء والزواج . وكان
(تراكو) الذى تزوج من صبية فى الحادية عشرة من عمرها
قد ألف لارشادها كتابا عن واجبات الزوجة ازاء زوجها ،
وكان يعتبر كل النساء أطفالا غير مسئولين ، ويعاملهن
على هذا الأساس . ولما كان كتابه هذا يرضى المحافظين
الذين أصروا على ابقاء نسائهم فى «مكانهن الصحيح» فقد
قوبل بحماس ولقى سوقا رائجة . ولقب تراكو الد أعداء
المرأة فى زمنه .

أما فى دائرة فونتناى الأدبية فقد خالف آراء تراكو
عدد من الشباب وكانت مخالفتهم لها شديدة . فأصدر
أحد هؤلاء الشباب (الثائرين) كتابا انحاز فيه الى جانب
ذلك الجنس (الأضعف شيئا) والأشيق كثيرا من الجنس
الأخر ، وعندئذ ثار ثائر (تراكو) فأصدر كتابا جديدا أكبر
من الكتاب الأول ، وهو كراسة تعليمات تبين واجبات
النساء ، وامتيازات الرجال . فعلى المرأة دائما طاعة
زوجها وعلى الرجل ألا يدلل زوجته قط . ولا ينبغى لأى
رجل أن يتزوج امرأة بالغة الدمامة أو بالغة الجمال .
فهى ان كانت بالغة الدمامة لم تستطع فى الغالب امتناع
زوجها . واذا كانت بالغة الجمال أمتعت فى الغالب أزواجا
آخرين . ولا تدع زوجتك تعد نفسها مساوية لك . ولكن
لا تبين بمن تساويك ، واحتفظ بزواجك بعيدة عنك
بعدا لاثقا ، فلا تقربها منك بحيث تسحرك ، ولا تبعداها
عنك بحيث تسحر غيرك من الرجال . وعاملها دائما فى
قسوة رحيمة ، ولا تطعمها الا قليلا من العناق يتخلله

اتهديد من أن لآخر .

و حين صدر هذا الكتاب ثارت مناقشات حامية في دائرة فونتناى الثقافية . وانضم كل عضو فيها الى أحد الجانبين ومن عجب ان رابليه قد انحاز الى جانب المحافظ (تراكو) . واذا كانت الحجج التى ساقها تراكو لم تثر اعجابه ، فقد كان على استعداد أبدا لأن يوجه سهام تهكمه الى حماقات الجنس اللطيف . فهو لم يكن مولعا بالنساء من حيث هن طائفة .

ولم يكن كذلك مولعا بالرجال من حيث هم طائفة ، وان أحبههم فرادى ، فقد كان يشعر ازاء الأسرة الانسانية (الفبية الشريرة) بزرارية ودية . فهو يرثى (لاختوانه المزدرين) ويضاحكهم ويدرسهم ثم يرسمهم رسما حيا فى (بنتاجرويل وجارجنتوا) . فالمحامون والأطباء والتجار والفنانون وأهل المعرفة .. كل هؤلاء من رجال الأعمال والحرف الذين كان يلقاهم فى حديقة تراكو قد أصبحوا النماذج التى يرسمها فى صورته التى تعز على الاحصاء كما تعز على المحاكاة . فهو يتعمق أشخاصه ، وينفذ الى صميم قلوبهم فى سر لم يتطامن الا لشكسبير ، كان يعرف كل ألوان الناس على اختلاف أعمالهم ومهنتهم . فلقد كان يعرف أحوال الفلاحين فى شينون ويتحدث بلهجتهم ويحلل عواطفهم ، ويفهم أفكارهم . ونفذت بصيرته الى أعماق حياة الاخوان الفرنشيسكان . وأمدته الألفة بحكام فونتناى بالأساس العملى للدراسة السياسية . وهو الآن موشيك على خطوة جديدة فى برنامجيه ، هى استقصاء الأفق المستدير للعادات والناس . فهجر الفرنشيسكان وانضم الى البندكتيين وكانت لهذا أسباب ثلاثة :

أولها ان الانتقال الى هيئة من القسس أرقى تعلما
أمر يعينه على متابعة دراساته في مزيد من اليسر .
وثانيها ان رئيس دير البندكتيين الذي انتقل اليه رابليه
كان من أرقى رجال المملكة في ثقافته . وثالثها ان رئيس
الدير قد عرض عليه وظيفة الأمين المتنقل له . (وهذه
فرصة الهية لتوسيع خبرته بالعالم) فسافر الى إيطاليا .
وكانت هذه الرحلة عند رجل خصب الخيال مثله أشبه
برحلة الى أرض الجان والخيال . فبدأت له روما ذلك
الملتقى للجمال الوثني والتقوى المسيحية ، مدينة حوت
آلاف المباهج . فأسماءها في لغته الرائعة (عاصمة العالم)
وتعلم في فترة مقامه القصيرة بها كيف يعرفها عن كثب ،
كأنما قد قضى بها طول حياته وكتب بعد عودته من
إيطاليا يقول (ما من بيت يعرفه صاحبه أكثر من معرفتي
لروما بكل شوارعها وأزقتها) . وسافر رابليه في صحبة
رئيس الدير الى أقطار أوربية أخرى . وكان أينما حل
ينصرف همه الى دراسة الناس وأمرائهم في شتى مواقفهم
وأعمالهم وطباعهم . واتيحت له فرصة ملاحظتهم في
السلم والحرب . اذ كان المعتدون وقتئذ كما ظلوا طوال
التاريخ البشرى ، يحاولون سلب الحقوق من أصحابها .
فملوك فرنسا وأسبانيا يدمرون مقاطعات شمال إيطاليا ،
وكان سلطان تركيا يحاصر فينا وكان جنود المانيا
يسحقون روما بأقدامهم .

وهكذا كانت الأمور تجري في دوامة مستمرة من
الجنون وسفك الدماء . وشهد رابليه ذلك المنظر المخزي
لقسوة الانسان بالانسان ، فقرر مهاجمته بالضحك
لا بالغضب . فهو في الفصل الثالث والثلاثين من (نيتا
جرويل) يكشف عن غباء الحرب العدوانية بأن يصوغ
منها مهزلة سافرة ، فالدوق بيكروشول (المروور) يتلف

على أن يزيد مجده ، ويعمر خزائنه ، وهو من المؤمنين بتلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الطريق الوحيد الى رخاء قطر من الأقطار انما يكون على حساب الأقطار الأخرى . لذلك يرسم خطة الهجوم على جيرانه . وتكون قيادة الحملة لشركائه الثلاثة في الجريمة (سير سهول تراش) والكونت (سواش بكل) ولورد (لوسى لوكس) ويدعو قواده الثلاثة الى الاجتماع به ، ويرسم المجلس خطة لحمله هدفها أن تكتسى بلادهم ثوب المجد وتكتسى أرض جيرانهم جثث الموتى (ولكن كان من شهود الاجتماع سيد مسن خبير بالحروب يقال له (ابشفرون) (اليقظ الحواس) قال حين سمع خطة الحملة (انى لكبر الشك فى ان هذا المشروع كله سيكون أشبه بقصة الجرة المليئة باللبن التى خدع الحذاء نفسه بأنها ستجلب له الفنى ، فلما كسرت الجرة لم يجد عشاءه . . ما هدفكم من تلك الانتصارات الضخمة ؟ لن تزيدوا عن كسر جرتكم) فقال الكونت سواش بكل : (يالك من ساذج ! اذن فلنختبىء فى ركن قصى ، حيث نقضى أعمارنا بين السيدات نطرز ونفزل وننظم العقود . ان من لا يفامر لا يجد له حصانا ولا بغلا) فأجابه ايشفرون . (ولكن من يسرف على نفسه فى المفامرة يفقد كلا من الحصان والبغل) وهنا لباب فكرة العسكرية العدوانية . لقد كان رابليه يسلم كما يعلم كل عاقل فى كل عصر ، ان الانتصار النهائى لا يتحقق للمعتدى وان انتصاراته الأولى انهى الا مقدمة هزيمته النهائية . بيد ان رابليه لم يكن عميق الاهتمام بمسألة السلم والحرب . بل لم يكن فى الواقع عميق الاهتمام بأية مسألة سياسية أو اجتماعية . فهو فى جوهره كاتب فكاهة مرح لا كاتب متهم ساخر . فهو لا يبلغ غاية سعادته — كما يقول — الا حين يستطيع (الجلوس والراحة والطرب)

للمسألة البشرية التي لا يبدو لها معنى ، وكان دائما
منشرح الروح . فعواء الساخر القاسى الفؤاد لم يجد
سبيلا الى ضحكته . لقد كان ينعم بالهضم السليم بحيث
لا يثور ثأره لحماقات رفاقه . وكانت نظراته الى الحياة
دائما غير شخصية . فكان أشبه بمخلوق علوى أرسله
سكان كوكب آخر ليعود بتقرير عن المهزلة الممتعة التي
تمثل على الأرض .

وكان مصورا للحياة لا يشبع نهمه ، فلذلك كان
يحاول دائما أن يرقب الحياة من زاوية جديدة . فما
كاد يتم مهمته مع الرهبان البندكتيين حتى أخذ على
عاتقه أن يدرس الطب . وكان فى الثانية والثلاثين من عمره
حين بدأ دراساته الطبية بجامعة منتبلى . وحصل على
إجازة الطب بعد ذلك بثلاث سنين فعكف على مهمته
الخطيرة فى الحياة ، وهى إبراء الناس من أمراضهم بالدواء
والضحك . فبدأ يكتب التذاكر الطبية ، ويكتب (بنتا
جرويل) وما مضت خمس سنين حتى قدم كتابه الرائع
الى العالم باسم مستعار .

- ٢ -

ولا يمكن ادراج قصة بنتا جرويل تحت أى عنوان مما
يصطنعه مصنفو القصص . انها مزاج عجيب من الجنون
والأخلاق ، والخشونة والجمال ، والامتهان والاخلاص ،
واللفو الميتافيزيقى والحكمة الفلسفية ، والهذر الطائش
والروعة الشعرية . انها أشبه بالحياة فى انها لا تنتظم
فى خطه ، وانها مليئة بالمفاجآت . فالكتاب كله زاخر
بالتواءات الفكرة . وتغيرات الأسلوب ، على نحو ما كان
لغير الله ورأبليه ان يتصوره على الاطلاق . فهو يقودك

فى طريق ممتع ، وعلى حين بفتة يواجهك بجبل لا سبيل الى اجتيازہ . فاذا وقفت مذهولا مستيئسا من خدعته ، فتح لك فجأة نفقا فى الجبل ودار بك من خلال كهوف جميلة تحت الأرض لا تخطر على بالك حتى فى الرؤى . ولا تكاد تخرج الى ضوء الشمس حتى يغلبك على امرك بطوفان من القدارة يكاد يذهب بأنفاسك . فتكاد تستيئس منه فى تقزز واذا هو ينظفك وينعشك بحمام سحرى من ندى الصباح ، فتشعر باستعداد للمضى معه الى سحر ما سيهديك اليه من مناظر الأرض التالية .

هذا هو الأثر أو بالأحرى سلسلة الآثار التى يحدثها رابليه فى عقل قارئه . انه حرباء عالم الأدب ، وهو الساحر صاحب الملايين من الأطوار والأخيلة . لم يكن رابليه يحترم الصورة الأدبية فاذا نحن نظرنا من الوجهة الفنية الى قصة بنتا جرويل وجدناها أخلاطا من اللغو غير منطقية . يصف الكتاب الأول مولد جارجنتوا أبى بنتا جرويل وطفولته وتعليمه — وكيف أتى الى باريس وسرق نواقيس (نوتردام) ليعلقها حول عنق جواده ، وكيف انتصر جده على بكرشول بفضل معاونة أخيه جون . وكيف جازى الراهب على ذلك بأن بنى له (دير تيليم) الذى صار مقر المذهب الدينى الذى يقال له (افعل ما بدا لك) .

ويخبرنا (رابليه) ان القاعدة الوحيدة التى يفرضها هذا المذهب هو ألا تراعى قواعد على الإطلاق . وليس بالدير ناقوس يذكر أحدا بالزمن أو بالواجب . وليس على رهبان هذا الدير وراهباته أن يقسموا اليمين الثلاثية على التزام العفة والفقر والطاعة . بل لهم أن يتزاوجوا وأن يكدسوا الثراء ويخضعوا القانون لمسا يشتهون .

وابواب هذا الدير موصدة أبدا في وجه (المتعصبين
والمنافقين والمحامين والقضاة والحكام والصيرفيين
والفاسقين والكذابين والجبناء والفشاشين واللصوص .
وانما برحب هذا الدير برجال ينشدون المتعة ، ونساء
قادات على الأمتاع ، بعشاق أولى مرح وذكاء وطلاقة
وطرب ورشاقة ودعابة ووسامة وكياسة وجدارة ودعة
ومجانة ، ونسبساء يشتهين ممتعات ضاحكات بارعات
يسبين العقول ، ساحرات مغريات ناضجات غيد ،
عزيزات رفيفات المكان غنجات رقيقات جميلات لا غاية
بعدهن لمستزيد بارعات فواتين) .

هؤلاء هم الرجال والنساء الذين اكتفينا في وصفهم
بحفنة من الصفات التي خلعها عليهم رابليه ، الذين منهم
يتكون أعضاء المذهب الجديد (افعل مابدا لك) وهم
يقضون حياتهم في المرح لا في الصبوم . وفي الأمتاع
والاستمتاع وفي الرضا الهاديء بامتلاء البطن وروح
القلب . أشبع رغبتهم تقتل جشعهم الآن من طبيعة
الانسان أن يتلف على ما يمنع عنه .

ويختتم الجزء الأول من القصة بتلك الصورة الهزلية
لدير تيليم - ويتناول الجزء الثاني مولد وتعليم ابن
(جارجنتوا) ويدعى (بنتا جرويل) ولقاءه ببانورج Pamurge
ذلك الطبيب المخادع الذي يعاني من خواء مزمن في
جيبه . وهو سكير عريبد متهتك لا يلحق بفباره في الخسة
والاستهتار أحد في باريس . وهو في كل ماعدا ذلك من
الأمور أرق انسان في العالم . وبعد اذ يقدم المؤلف بطله
على هذا النحو الرسمي يأخذنا من يدنا أو قل من أنفنا
ويجوب بنا عبر آفاق اللامكان الى بساتين اللغو . ويقول
رابليه (انى ادعو عليكم بالوقوع في الكبريت أو النار أو

في بشر غير ذات قرار ، اذا لم تؤمنوا بحق الايمان بكل
شيء اروييه لكم في هذه الرواية (كيف فر بانورج من أسر
الأتراك وكيف انتصر على أربعة عشر وستمئة ألف كلب
ليلطخ سيدة تمنعت عليه ، وكيف نسل بانثا جرويل
بطريقة بالغة الغرابة ثلاثة وخمسين ألف رجل صغير
ومثلهم من النساء الصغيرات . . وكيف أصاب النصر
الباهر على المرأة وكيف ان (ابستمون) قد عاد الى
الحياة بعد أن قطع رأسه ليخبر العالم بآخرايباء الجحيم .
وهكذا يختم الكتاب الثاني بهذه العبارة (طابت ليلتكم
أيها السادة ولا تكثروا من التفكير في أخطائي بحيث
تنسون أخطاءكم) .

والجزء الثالث من هذا الخيال الهازل والحماقة
الخداعة يقل منطقية حتى عن الكتابين الأولين من حيث
بناؤه . يبدأ بصورة الفيلسوف ديوجين الذي دحرج
برميله على منفسح ثلاثة ومائة فعل على التتابع . ولم
يحظ شكسبير نفسه بمثل هذه السهولة المذهلة في
استخدام اللفظة . ثم ينقلنا رابليه الى أرض النعيم المقيم
Utopia هذه الأرض المستحيلة الوجود تمام
الاستحالة يقطنها ثمانية ملايين من السكان يقدوا العزم
على فتح العالم . على انهم لا يستخدمون في ذلك قوة
السلاح ، بل اخلاء الناس من همومهم ، وتعليمهم كيف
يحيون حياة آمنة طيبة . فيمنحونهم قوانين خيره
ويعاملونهم بأقصى ما يمكن من الرقة والمجاملة والدعة
والحب . وبعد أن ينقلنا المؤلف الى هذه الأرض التي
تهفو اليها القلوب ويعد أجنحة آمالنا للتحليق في مغامرات
جديدة ، يوقف الوصف فجأة ويخصص كتابا كاملا
للكلام عن الزواج . وقد بعثه على ذلك ان بانورج يريد
الزواج لكن يحمله على التردد في انجاز تلك الرغبة خوفا

من ان زوجته قد تخونه . وتشغل هذه الحيرة عقله
فيشرع في بحث يستغرق أربعة وثلاثين فصلا عن النساء .
وهل هن أمينات أم خائنات لأزواجهن . فيشاور عددا
كثيرا من الناس منهم نبيه وشاعر وأخرس أصم وفلكي
وفقيه ديني وفلاح مهرج بسيط . . ويدعهم جميعا وقد
تزود بالألفاظ ولم يتزود من الحكمة بشيء . على انه
تلقى من الفلاح البسيط اقتراحا عمليا . . هو ان يحيل
مشكلته الى مهبط الوحي الذي يعرف الجواب على كل
سؤال .

وهذا يؤدي بنا الى الكتابين الرابع والخامس ،
الرحلة الى مهبط الوحي . وقد أثارت الرحلة روح
المغامرة والضحك في كل أرجاء الأرض وما فوقها وما
تحتها فاذا وصل بانورج وبنتا جرويل آخر الأمر الى
نهاية الرحلة ، علما من مهبط الوحي ان الجواب الوحيد
على سؤالهما ينحصر في كلمة واحدة (اشرب) اشرب عبا
كأس الحياة والجمال والمتعة والمعرفة والحقيقة .
(وكل هذا مستحب) كما يقول (بانورج) ولكنه لايزيد
حكمة في شأن الزواج عما كان عليه قبل الرحلة الى
مهبط الوحي .

وهكذا ينقطع بلا تمهيد ذلك الخيط المعقد الذي
لافكاك له من اللغو السامى الذي بدأ في غير مكان ، ولم
يؤد الى مكان . ولنكتف بذلك في شأن الخطة غير المنطقية
للقصة . ولننتقل الى التفاصيل فنجدها قد عولجت
بنفس هذا القدر من الاهمال غير المنطقي . فجارجنتوا
في بعض الفقرات مارد جبار ، وهو في فقرات أخرى رجل
عادي في طوله . ويكون (بانورج) أحيانا رجلا عاقلا
شجاعا أميناً وفي أحيان أخرى يكون محتالا أحمق جباناً .
وأحداث القصة تسير في دوران جنوني مريح كأنها العالم .

وفي الكتاب الأول يحيا جارجنتسوا في أرض النعيم
الأسطورية ونجده في الكتاب الثاني قد اختطف بلاسبب
ولا مناسبة الى تورين مسقط رأس رابليه . وفي الفصل
الثالث والعشرين من الكتاب الثاني يختفى جارجنتسوا من
القصة بعد أن تحول الى أرض الجان . ثم يأتي الفصل
الخامس والثلاثون من الكتاب الثالث فنجده قد عاد
الى صفحات الكتاب وكان شيئا لم يصبه . وهذا قليل
مما يزخر به الكتاب من عدم الاتساق . لم يكن رابليه
ممن يحسبون حسابا للعقول الصغيرة . فانه اذا وجه
همه الى خلق احدي الروائع لم يحتفل بتافه الأمر كما
يحتفل به أصحاب الصناعة الأدبية . وانه ليحدث أحيانا
أن يكون خير الفنانين من أردا الصنّاع ، فحمدا لله على
ذلك ! ..

- ٣ -

يبدو عمل رابليه في ظاهر أمره - كما رأينا - دعابة
هاذرة طائشة حائرة لامعنى لها ولا خطة . ولكن لنعد
الى فتح باب الخزانة ، ولننظر نظرة أدق الى بعض ما
حوت من كنوز تثير العجب . فما الذي نبدأ بفحصه ؟
ان المشهد غنى بالقرابة والخصب والتنوع والاذهال ،
غنى بالحياة بحيث تصيب العقل منه نشوة فلا يسعه
أن يقرر ماذا يختار . وليس من سبيل لتقدير رابليه الا
بأن تقرأه من أوله الى آخره . غير أننا رغبة في تقديم
نموذج للنكهة الفريدة لعمله ، سنأخذ منه أية صفحة
على نحو عشوائي تقريبا .

انظر مثلا كيف يتهمك على العجرفة غير ذات المعنى
في أحكام القضاة بالمحاكم . فلقد اشتبك لورد كسبريتش

ولورد سكسفت فى مناقشة فى حضرة بنتاجرويل . وفيما
يلى حكم بنتاجرويل بعد أن سمع أقوال الطرفين : (بعد
رؤية وسماع وتدبر وبحث الخلاف بين لورد سكسفت
ولورد كسبريتش تقول لهما المحكمة أنه بالنظر الى ما
أصاب الخفاش على حين بفتة من الرعد ، والارتجاف
والمشيب - فانسحب فى شجاعة من الاعتدال الصيفى -
والمحاولة بوسائل خاصة ازعاج بنادق اللعب عن-
المصابين بقليل من التوعك لاسرافهم فى الجرعة بسبب
المظهر الشيق واستفزاز الخنافس التى تسكن فى الجو
المعتدل لنسناس منياق على ظهر جواد قد شدد الى
الخلف وترقوس . فان المدعى صاحب حق فى العجل
الصغير ، أو ان يسد بحبال القنب شقوق السفينة
التي نفختها المرأة الطيبة واحدى قدميه منتعلة والأخرى
حافية ، فيدفع له ويعاد اليه لضميره الدنىء اليابس
من الفستق الجبلى أو الخرشوف بقدر ما فى اثنتى بقرة
من الشعر ويدفع مثل ذلك للمطرز ومبلغ كذا . لفلان .
كذلك تعلن المحكمة براءته من التهمة المترتبة على التدليس
فى الخطر الذى ظن أنه محدثه)

وهكذا وهكذا تمضى صفحات كثيرة . وفى ختام رطانتها
يأمر القاضى المدعى بأن يدفع للمتهم غرامة - حوالى منتصف
أغسطس فى مايو ، واذا شك القارىء من أنه لم يفهم
شيئا مما كتب ، فان المؤلف يعترف له فى ابتسامة
ماجنة (وكذلك أنا لم أفهم شيئا) وكان رابليه يزدرى
مهنة القانون زراية سليمة كان يقول (ما أشبه قوانيننا
ببيوت العنكبوت ، توقف الذباب الفبى ، وتمسك به ،
وتدمره فى داخلها ولكن الحشرات الأقوى تحطمها وتقذف
بها وتحملها حيث شاءت) .

وعيب معظم المحامين في رأيه هو ان كثيرا جدا من الكلمات تجرى على أسنتهم ، ولا يوجد في رؤوسهم من الحكمة الا اقل القليل .

ويصدق هذا فيما يقول رابليه على معظم الفلاسفة ، وخاصة فلاسفة ما وراء الطبيعة الذين يصفون في عبارات العلماء ، ويقيسون في دقة العلماء ، أشياء لا وجود لها . ويحدثنا رابليه ان أحد هؤلاء الميتافيزيقيين قد كتب بحثا علميا موضوعه : « هل تستطيع العنقاء اذا أزت في الفضاء أن تلتهم الفايات الثانية » وان آخرين يشغلون أنفسهم بمثل هذه المشكلات : هل تستطيع فكرة افلاطونية ، تقفز الى اليمين تحت فوهة العماء ، ان تعصف بدرات ديمقريطس أو هل برد الشتاء في جزء الأرض المقابل لنا اذا أمر في خط اكثولوجى عن طريق الصلابة المتناسقة للمركز ، يستطيع عن طريق احداث حركة مضادة للحركة الدودية للأعماء ان يدفىء الفشاء السطحى لكعب الانسان (الا سحقا لهؤلاء الطبول الجوفاء الذين يخنقون الفكرة حتى يقتلونهم تحت ستار من الألفاظ) .

هؤلاء العلماء المزيفون الذين تتضاعف معلوماتهم . ويتناقض عدد ما يعرفون عنه ، حتى يعلمون كل شيء عن لاشيء ، هؤلاء المدرسون العميان الذين يعلمون عميان ، انما يتخبطون في حجرة ظلماء يبحثون عن فأر اسود لا وجود له .

يخلصنا رابليه من كل ما شابه ذلك من سخف حين يواجهنا لا بأفكار لا وجود لها ، بل بحقائق ملموسة . وهو يمكن لنا من ان نخبر هذه الحقائق بكل حواسنا الحية . بيد انه يلمس حواسنا بأشعة العقل .

وان خياله الخصب ليتراقص على الصفحات وتتدقق
منه الحكمة والجمال . فهو من أبرع أساتذة العالم في
تفسير الحق عن طريق الخيال ، وكتابه مليء بال نوادر
المنيرة والقصص الخرافية المثيرة . وان بعضا من نوادره
وقصصه لا ترضى عنه الأذن خجلا واستحياء . ولكنها
جميعا تضيء جنبات القلب بوهج الفهم . والحياة كلها
عند رابليه نادرة من النوادر ، دعابة الهيبة ذات نهاية
لاذعة . ولولا اللدع المسرحي اعنى لولا صدمة الدهشة
لما استحققت حياة ان نحياها . ولا استحققت قصة ان
نقراها . وكان رابليه مسرحيا حقا . ويجب حين نقرا
قصصه ان نتوقع ما لا يتوقع ، وانه ليجد هذه المفاجآت
في مغامرة الرجل الذى تزوج من امرأة خرساء . وفي
نادرة فرانسوا فيون وادوارد ملك انجلترا وفي قصة
الحمال الذى دفع رنين المال ثمنا للدخان الذى ملئ
الخبز وفي الأدوية الخمسة التى استخدمها بانورج
ليخضع بها شهواته الجسدية . وفي أمتع هذه الدرر
جميعا - قصة خاتم هانس كارفل . ولعل هذه القصص
تبدو خشنة للفتنا الانجليزية الحديثة البسيطة الصريحة ،
ولكنها فى الظلال المرفهة للغة الفرنسية فى القرن السادس
عشر لا يبدو فيها شيء من الخشونة . فلقد كان رابليه
يعرف دائما كيف يمزج أشد خموره حرافة بذكاة
الادراك السليم .

- ٤ -

على ان السنوات الأخيرة من حياة رابليه كانت تختلف
عن قصصه فى انها كانت ممزوجة بالتوايل ، ولكنها لم
تكن ممزوجة دائما بالادراك السليم . فقد حاضر فى الطب

وكان من أول من أدخلوا تشريح الجثث في دراسة علم التشريح واختراع آلة جراحية تدعى قاطعة الألسن Clottotomon وعاش فترة في دير القديس مور، فقد نفى نفسه إليه بوصفه راهبا صحيحا ، ان وجد حقا راهب صحيح منذ وجدت الرهبانية . غير انه قد تدخل في السياسة بعد ذلك وسجن وبعد فترة قصيرة أفرج عنه . فعمل مستشارا لناشر - وحاول كذلك ان يمثل على المسرح ، بوصفه متنفسا لطاقته الدافقة .

ثم عاد الى الدير . وانضم الى رجال الدين ، وجدد قسمه على التزام العفة . وحنث به وصار أبا جسديا كما هو أب روحى ، وندم على ضعفه ثم ندم على ندمه، وأخيرا نام نومته (٩ ابريل عام ١٥٥٣) غنيا بالمغامرات لا بالسنين .

وهكذا عاش وضحك ومات ساخر بذ السآخرين
أجمعين مرحا وطربا .

ميجل دى سرفانت

(١٥٤٧ - ١٦١٦)

- ١ -

نحن مدينون لسيرفانت بقصتين من أمتع القصص في تاريخ الأدب . أولاهما : قصة حياة دون كشتوت العجيبة ، والثانية : قصة حياة سرفانت التى تفوقها عجباً .

ومن أسف ان كتاب سيرة سرفانت يميلون الى اسقاط ما لا سيفونه من هذه السيرة . ولكن ماذا يحول دون اعجابنا بآثاره الأدبية وروايتنا سيرته رواية صادقة في الوقت ذاته ؟ انه لا يضير الورود انها تنمو من التربة العادية ، وان جمالها طعامه الماء والطين . كذلك الشأن في فن سرفانت . فهو ثمرة عذابه وآلامه . ولو كانت حياة سرفانت أقل مرارة مما كانت لقصرت رواية دون كشتوت عن بلوغ ما استشرفته من آفاق .

وكان ميجل دى سيرفانت سافيدرا معاصراً لشكسبير ولد في المدينة الجامعية (البكالادى هنارس) لكنه لم يكد يفيد من جوها الثقافى في حياته الباكراً ذلك لأن أباه كان طبيباً مشعوذاً ينتقل من بلد الى بلد يصيب رزقه من تقديم الدواء ، وتقطيع الأوصال من أولئك الشياطين التعساء الذين يلتمسون لديه الشفاء . وكان ميجل الصغير الذى يصحب أباه في أسفاره لا يكاد يتعلم من

الكتب شيئاً ، وإن تعلم من الحياة كثيراً . فإن فاته الالتحاق بالكلية فهو على ذلك شاب واسع الإدراك مدرب على شئون الحياة ، فقد اشترك في مبارزة وهو لم يزل حديث السن شيئاً ما . وما هي إلا فترة قصيرة ثم وقع في حبائل حب مشوب لاحدى وصيفات الشرف .

وانه لحديث الخطأ في جمع مادة لكتبه المستقبل . فنراه بروما في عامه الثالث والعشرين . ولعله منها في منفى بسبب ما اقترف من حماقات الشباب . ويشغل في هذه المدينة قرابة العام . ثم يحدو به قلقه وعدم استقراره الى التطوع في الجيش . ثم يشترك في واقعة (ليبانتو) ويكاد يفقد يده اليسرى في هذه الواقعة من أثر ضربة سيف تخلف بها جراحا تعطلها طول حياته فيطلق عليه « كسيح ليبانتو » ويظل حتى آخر أيامه مزهوا بكفاءته العسكرية العادية أكثر من زهوه بعبقريته الأدبية النادرة .

وفي عودته من الحرب يقع في يد قرصان مراكشيين ، فيبيعونه بيع الرقيق . ولم يفد من عبوديته إلا بعد خمس سنين . وهو بعد إذ مارس حياة الجند وحياة الرقيق يجرب حظه في الشعر ، ويوفق فيه الى اخراج طائفة من القصائد تعد من أردا ماعرف الأدب الأسباني من شعر مكسور . وهو على قلقه وعدم استقراره إذ يتجه الى المسرح فيؤلف بين عشرين مسرحية وأربعين . فياله من بركان من النشاط ثائر .

ولكنه يقذف بالرماد ولا يقذف بالحجم . فمسير حياته أردا من شعره أن جاز أن هناك ما هو أردا من هذا الشعر . ويحاول آخر الأمر أن يكتب قصة من قصص الرعاة . فيكون فشله فيها ألم ما أصابه من فشل .

وبدا سرفانت وكان القدر لا يريد أن يسلكه في الأدباء .
لقد فشل سعيه لاصابة الشهرة . واستقرت به
النوى ، لبحث عن السعادة . فتزوج من سيدة تصفـه
بثمانى عشرة سنة . لكنها على شبابها تعجز عن ارضاء
خياله الجوال الآفاق . فما هو الا عام بعد زواجهما
حتى كان ابا لطفل . . من امرأة أخرى .

وحاول بعض الوقت أن يصيب بسن قلمه رزق أسرته
متمشيا في ذلك مع القانون والطبيعة . ثم كان عام
١٥٨٨ - وكان في عامه الأول بعد الأربعين فولى وجهه
شطر مورد للمال أكثر حكمة ، فسلك بين العمـلاء
التجارين للأرمادا العظيمة . ولكن سوء الطالع لاحقه
هنا أيضا . فهزمت الأرمادا وفقد سرفانت مورد رزقه .

ثم اشتغل في عمل آخر . . فعمل محصل ضرائب في
غرناطة ونقص الايراد على عهده نقصا خطيرا سواء لعدم
أمانته أو اهماله ، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن فترة
من الزمان . فلما أطلق سراحه عاد الى الأدب يتعيش
به ، وصار من مرتزقة الشعارير ، اذا جاز هذا التعبير .
فهو يكتب المقدمات المنظومة تمجيذا لكل أنواع الكتب
مهما تختلف موضوعاتها بين ملاحم الشعر وفن التوليد .
وكانت هذه المقدمات لا تفضل الكتب عادة . حتى لقد
كتب (لوب دى فيجا) وهو من كبار كتاب المسرح (في
خطاب مؤرخ في الرابع عشر من اغسطس سنة ١٦٠٤)
انه ليس في اسبانيا شاعرا أسوأ من سرفانت . وان
سرفانت نفسه ليعترف بذلك فيقول في مرارة ماجنة
« اننى اشد دربة على قاب النظم منى على النظم » .
وهكذا بلغ عامه الثامن والخمسين . فتراه رجلا

محطما مسنا خائب الأمل ، ضائقا بالحياة . لقد فشل
في كل شيء ، وفشل في الأدب على الأخص . وهو الآن
إذا استعرنا قوله « رجل ذو لحية كالفضة ، وإن كانت
كالذهب منذ أقل من عشرين عاما ، وشارب ضخيم وفم
صغير » أما الأسنان : فليس له منها غير ستة وهذه
حالتها سيئة ، ونظامها أسوأ ، لأن أسنان الفك الأعلى
لاتقابل أسنان الفك الأسفل . ويخبرنا أيضا انه ذو
بشرة الى البياض أميل منها الى السمرة ، ثقل الكتفين
شيئا ، وليس خفيفا نشيطا في سيره . وهذه صورة
لاتأخذ بمجامع القلب صورة رجل مهجور مهمل يبدو
انه قد ارتضى أن يسير الى النسيان الأبدى بطيئا متثاقلا .

- ٢ -

وبعدئذ قفز فجأة الى المجد دون ايدان التفر ، كأنه
وهج مفاجيء بعثت به الشمس الغاربة . فهذا الرجل
الذى كتب في شبابه بضعا من أردا قصائد العالم قد
واتاه الإلهام في شيخوخته . فكتب إحدى آيات القصص
في العالم .

كان سرفانت يشغل في كتابه « دون كشوط » منذ
امد طويل . وكتب منها فصولا في زلزلة السجن . وقد
نسقت حوادثها جميعا وسجلت في حمأة الفقر ولذعة
اليأس . وما كانت دون كشوط غير بستان نما من الطين ،
وحكمة تمخض عنها الألم . والهام تجلى على روح وادع ،
سيم العذاب في جسم مرهف الحس ، وإذا كان العالم
قد سلك هذه القصة في مداد الآيات العالمية . فما أبعدا
مع ذلك عن أن تكون كتابا كاملا لا غبار عليه . فإن بها
لأخطاء فاضحة ، وانها لمصابة - كما قرر كثير من نقدتها

بذلك الداء الذي مثنى به الراوية الأسباني ، أغنى
داء الاسهاب الممل . فالكتاب بالغ في طوله ، بالغ في
تفككه . فأزاهير عقل سرفانت موزعة لذلك على أرض
بالغة في السعة . وعليك اذا شئت بلوغ مواطن الجمال
المنعزلة هنا وهناك ان تجوب اليها كثيرا من الدروب
والمسالك القاتمة الكثيبة ، ولعل هذه القصة (دون
كشوط) كان يتضاعف حظها من الجودة ، لو تضاعف
حظها من الإيجاز .

والقصة الى ذلك مصابة بالكثير من عدم الدقة سواء
في بنائها أو في أسلوبها . فسرفانت لم يصحح كتابه قط
على ما يظهر . ولم يعد قراءته حينما كتبه ، فما أكثر
مابدا فصلا جديدا بما ينقض ما كتب في آخر الفصل
السابق ، وكان ذات مرة أشبه بما روى عن يوشع في
التوراة من انه وقف مرور الزمن ، وأمر الشمس أن
تلتزم مكانها لا تتحول عنه أياما عدة . فقد دعى دون
كشوط وسانشوبانسا الى منزل الدوق لتناول العشاء
اذا قبل الليل . وبعد أن أصابا من الطعام ألوانا عدة
شاركوا في نقاش طويل . جاوز بهما منتصف الليل بوقت
طويل لا وراء ، يقول سرفانت « الآن قرب المساء » .

وفي مكان آخر يذكر لنا سرفانت ان حمار سانشو
قد سرقه لص ثم تجد (المؤلف) لاينى عن وضع سانشو
بانسا فوق حمارة المسروق سبع مرات على الأقل ،
والكتاب مليء بمثل هذه الزلات .

على اننا سنتناول أخطاء سرفانت بنفس الروح التي
تناولها هو بها ، فهو حين يكتب الجزء الثاني من دون
كشوط يلفت القارئ الى أخطاء الجزء الأول ويضحك
منها . « يا الهي ما أخطأنا نحن البشر » فهو لا يعتذر عن

أخطائه ، ولا يسعى الى تصحيحها ولن يفكر في صقل قصته وتنميقها الا كما فكر في زخرفة أبطاله وتجميلهم، انها التؤولة المضحكة في الوجه ، والسخف الخرف في العبارة هو ما يجعل الانسان والكتاب حيا محبوبا. وان بعض آيات الفن لتبلغ من الكمال ما يباعد بينها وبين الانسانية ، أما قصة (دون كشوط) فقد بلغت من الايفال في الانسانية ما باعد بينها وبين الكمال .

ودون كشوط هي قصة مجنون وداع يرويها ساخر وادع. هي سخرية رقيقة بحماقات البشر. وهذا الكتاب على مابه من تهكم ، قد خلا من المرارة . فنحن نضحك كلما رأينا صورة لحماقتنا في حماقة دون كشوط . وصورة لخشونتنا في خشونة سانشو بانسا ، ونشعر ذات لحظة اننا أقرب صلة بالفارس الذي أربت شجاعته على بصيرته ، وننحاز في اللحظة التالية الى التابع الذي أربت بصيرته على شجاعته . . ويحدث كثيرا اذ نرى الأول يحارب بسيفه والثاني يحارب بلسانه ان نقول « انها صورتى الحقة رسمتها عبقرية سبيرفانت » فكل منا - كما يعرف سبيرفانت - كان له يوم مع السيف ويوم مع اللسان . وكل آدمى منا هو مزاج من دون كشوط وسانشو بانسا ، ففي أوقات نلوذ بقوة أذرعنا، وفي أوقات أخرى نعتمد على رشاقة أرجلنا وخفتها ونشاطها . ونكون في لحظة حكماء في حماقتنا فننحاز الى دون كشوط فنحارب طواحين الهواء ، ونكون في لحظة أخرى حمقى في حكمتنا فننحاز الى التابع الذى يجتنب الجهاد منذ الآن « لينام ليلة على سطح الأرض » وسواء أكنّا من الحمقى أو الحكماء فكلنا يسعى على

غير هدى الى نفس الفاية وهى ان نجعل غيبه الخيانة
أخف وطأة .

- ٣ -

لنقض الآن بضع لحظات مثيرة ، فلنسرج خيلنا
ونعتلى صهوتها لنلقى دون كشوط ، ذلك السيد المتجهم
الأسارير، حين يأخذ فى غزوته ممتطيا جواده (روزيمانت)
ذا الساقين النحيلتين ، يتلمس ان يقوم بمغامرة نبيلة ،
ودون كشوط عزب فى الخمسين ، نحيل الجسم ، خوى
جيبه من المال ، وزخر عقله بالخيال وكان قد قرأ الكثير
من كتب الفروسية ، والتجوال طلبا للمبارزة ، فعزم على
ان يكون فارسا مبارزا ، وأحاط جسمه بدرع مزرد هو
كجسمه فى قدمه وصدئه . ولبس خوذة قد شدت اليه
بعقد كثيرة يستحيل عليه أن يخلعها اذا كان الليل ،
وتسلل من منزله ذات صباح مونق مشرق من يوليه
« وكان عقله قد خبا » فيحسب طواحين الهواء مرده ،
قلاعا ، والمجرمين سادة ، وعاملات المتارب ملكات ،
ويحاول رد الظالمين واعانة المظلومين ، فلا يلقى جزاء
على عمله غير الركل واللکم ، يلقاها من الظالمين والمظلومين
على السواء .

لكنه ماعظمت متاعبه الا زاد ايغاله فى الجنون فكرس
حياته لانقاذ فتاة ريفية لا تحس بوجوده ، ودعاها
السيدة « دلشينيا الشقراء » ويقبل ماعرضه خادمه
الأمين (سانشو بانسا) من تطوع لخدمته ، وكان سانشو
بانسا ذا حظ من الخرق والحمافة يعدل حظ سيده
من الجنون . . . وان كان لسانه يجرى أحيانا بكلمات
تزيئها حكمة سليمان . امتطى اتانه وتبع سسيده الى

- ٥٤ -

مواقع الجنون بشتى ألوانه ، وهو يأمل في دون كشوط أن ينصبه آخر الأمر حاكما على جزيرة .

وكذلك نراهما ذات صباح وقد بلغ منهما العناء والجهد ، ولكنهما غير مكتئبين ، وقد تأهبا لخوض مغامرة من تلك المغامرات التى عرفا بها وصارت علما عليهما ، ويرفع دون كشوط عينيه فىرى . . . انسى عشر رجلا تقريبا مترجلين وكأنهم حبات سبحة ربطت فى سلسلة من الحديد وهذه السلسلة تلتف بأعناقهم وأما أيديهم فمقيدة بالأصفاد . وكان يحرسهم فارسان . وفى يد الراكبين بنادق ذات قذاحات ، وفى يد الراجلين رماح وسيوف ، ولا يكاد يراهما سانشو حتى يقول « هذا عقد من الرقيق المسخرين ، قوم سخرهم الملك تسخيرا فى الأعمال الشاقة » فيقول دون كشوط « ماذا ؟ رجال مسخرون ؟ أيستطيع الملك أن يسخر أى إنسان ؟ » فيجيبه سانشو « لم أقل ذلك ، وإنما قلت انهم قوم يعاقبون على جرائمهم بأن يسخروا فى خدمة الملك تسخيرا » فيجيب دون كشوط « لكن هؤلاء الناس على أية حال ، وأن كان يرافقهم حرس فهم ذاهبون كرها لأطوعا ، فإن كان الأمر كذلك فهذه رسالتى محددة المعالم . القضاء على العنف والتعذيب وانقاذ المعذبين والمحتاجين » .

وكانت سلسلة الرقيق قد وصلت وقتئذ فسأل دون كشوط أول الرقيق عن جريته التى ساقته الى الأشغال الشاقة . فقال الرقيق « أنى أحب » . فسأله دون كشوط « وكيف كان ذلك ؟ »

« أصبت بهوى سلة من الكتان وكان غراما جارفا ، حتى لقد احتضنتها . . وحاولت أن أفر بها » وسأل دون كشوط رقيقا آخر ماسبب القبض عليه . فأجاب

السجين «كان السبب انى لم أمتلك عشر ديكات ، ولو كما يجر الكلب» . ويذكر سجين ثالث لدون كشوط « انه وشجذت به قريحة المحامى . ولو كان ذلك لكنت اليوم فى وسط سوق (طليطله) لا فى آخر السلسلة مجرورا كما يجر الكلب » . ويذكر سجين ثالث لدون كشوط انه معاقب على جرم خطير ، جرم لا يغتفر . فقد اعترف بأنه سارق ، ولو انه استطاع أن يمسك لسانه ، واحسرتاه، لكان الآن رجلا حرا .

ويستمع دون كشوط صابرا الى قصة كل سجين . ثم يقرر أن هؤلاء الناس وان كانوا مجرمين فى رأى القانون ، فهم كذلك قوم نزلت بهم حنة ، وان ما أصابهم ليرجع الى حقيقة عرضية ، هى انهم قد قبض عليهم . فأعلن اليهم ان من واجباته بوصفه فارسا جوالا ان يعطف على المحتاجين ويبذل لهم العون ، ولكن دون كشوط قرن قوله الأحق بالعمل الجنونى ، فشن هجوما مفاجئا على الحراس ، فأذهلتهم المفاجأة ، وفروا مدعورين ، وأتيح للسجناء أن يتحرروا من أصفادهم .

ويزدهى هذا النصر دون كشوط فيأمر الرقيق الذين أنقلدهم بأن يرفعوا الأصفاد التى حررهم منها، ويحملوها الى (حبيته دلشينيا الشقراء) ذكرى للمعركة التى انتصر فيها ، ويرد السجناء الفارون على ذلك الرجاء العجيب بوابل من الحجارة يمطرون به دون كشوط وسانشو بانسا . ثم يختفى الأرقاء كل فى ناحية . ويظل الأتان والحصان ، وسانشو ودون كشوط وحدهم .

ويقف الأتان يتفكر مطرق الرأس ، تهتز أذناه بين الآن والآخر، فهو يظن ان عاصفة الحجارة لم تقف بعد، بل ان صفيها لا يزال يتجاوب حوله . ويستلقى الحصان

الى جانب صاحبه الذى وقع عنه هو الآخر بفعل قذيفة حجرية ، اما سانشو فقد وقف فى مسكنة وخوف من رصاص الاخوان المقدسين (الشرطة الأسبانية) واستلقى دون كشوط بطوله على الأرض محسورا اذ كان المسيئون اليه هم من قدم اليهم كل ذلك الجميل .

ويضطر دون كشوط وسانشو بانسا الى الاختفاء آخر الأمر فى الجبال ليتقوا غضب الاخوان المقدسين .

وهنا يقترح الفارس المقطب الجبين ان يؤدى الكفارة كما كان يؤديها فرسان الزمن الخالى . فيسأله سانشو - وعم تكفر؟ - فيجيبه دون كشوط « لا أكفر عن شيء محدد بالذات » ان أى انسان يستطيع الحماقة لسبب معقول والمهارة ان تكون أحمق لغير ما سبب على الإطلاق . فرسان الزمن الخالى كانوا يعذبون أنفسهم لأن عشيقاتهم غير مخلصات . أما دون كشوط فيجب تعذيب نفسه لأنه يستمرىء مذاق الألم . وهكذا يخلع ملابسه ويأخذ فى ضرب رأسه فى الصخور ويهيب بسانشو أن يراقب جيدا تكفيره الأليم وأن يبلغ نبأه لدواشينيا الشقراء .

وما يفرغ من هذه الكفارة حتى ينخرط فى سلسلة أخرى من المفامرات المجنونة وتبلغ هذه السلسلة ذروتها فى مبارزة مع زق خمر حسبه دون كشوط ماردا مسحورا . وكذلك يسير من جنون الى جنون ، حتى يقابله أخيرا فى وسط مفامراته المضحكة قسيس قريته ، الذى كان يبحث عن ذلك المجنون الحبيب . فيحمله الى قريته فى قفص . فاذا أحضر هو وتابعه الى القرية هرعت زوجة سانشو بانسا الى زوجها وعلى شفيتها سؤال متلهف « هل حمارك بخير ؟ » فيجيبها سانشو

بأنسا . « هو خير مني » فتقدم في حماسة « حمدا لله » .
وهكذا ينتهى الجزء الأول .

- ٤ -

قدم سيرفانت للعالم ذلك الكتاب المرح (الجزء الأول من دون كشوط عام ١٦٠٥) ولكن حياته الخاصة كانت توغل في المرارة - وإذا كان الفقر لما يزل يطارده ، فعليه الآن كما كان عليه من قبل أن يعيش بين حثالة البشر . فأقام مع ابنته وأخته في شقة في منزل سيئ السمعة . حتى لقد أومىء الى انه قد شجع ابنته على احتراف (أقدم مهنة في العالم) وانه كان يعيش مما تتكسبه . ثم أصابه في السابع والعشرين من شهر يونية ١٦٠٥ خطب هو أعمق خطوبه . فقد وجد في غرفة سيرفانت وأهله نبيل رفيع المقام مقتولا ، فقبض على سيرفانت بتهمة القتل . ولكن ثبتت براءته لحسن الحظ .

وحينما كان العالم في الأعوام العشرة التالية غارقا في ضحكته من دون كشوط كان سيرفانت لا يكتب الا نادرا . فقد كتب عددا من القصائد المتوسطة في قيمتها ، وحفنة من المسرحيات لم يكتب لها رؤية المسرح قط ، ومجموعة لابأس بها من القصص القصيرة . هذا كل نتاجه الأدبي في حقبة كاملة ، مضافا اليه الجزء الثانى من قصته العظيمة .

- ٥ -

والجزء الثانى من دون كشوط أطرف من الجزء الأول نفسه من بعض الوجوه . فهو مزاج من اللغو المخرف

والحكمة اليقظي . فدون كشوط يتكلم أحيانا كالمجنون
ويتكلم في أحيان أخرى كما يتكلم الحكيم . وبفضل عبقرية
سرفانت تمخضت هذه الأشتات عن كائن حي متسق .

على ان بطل الجزء الثاني ليس (دون كشوط) بل
(سانشو بانسا) لقد صار عقل هذا الرجل أشد خرفا
من جنون سيده . انه لايزال مولعا بمعانقة طعامه وتقبيل
زجاجته . ولكنه لم يعد الأحمق الخلى البال الذى رأيناه
في الجزء الأول . انه الآن أبله طموح ، حريص على ان
يشرى ، وان يعد زيجة فاخرة لابنته فمن الخطر على
شابة حسناء ان تظل وحيدة . فالزواج السيء أسلم
للفتاة من الاختلاط غير المشروع .

لذلك فهو لاينى عن مطالبة (دون كشوط) بالجزيرة
التي وعده بها جزاء له على خدماته . انه واثق بقدرته
على ان يكون حاكما كفؤا ، لأنه كما يقول عن نفسه
(أعرف قليلا عن كل شيء ، وقليلا قيما عن أى شيء) .

ويبدو في الواقع ان سانشو بانسا قد التحق بالمدرسة
بين بداية الكتاب ونهايته فهو في الجزء الأول من الكتاب
جاهل بقدر ما هو مخلص . ولكنه في الجزء الثاني يفدو
وطابا ينضح بالأمثال . فتنتلق الأمثال من فمه بالئات
في كل مناسبة . وهى زاخرة بالايقاع اللفظى فقيرة
جدا في المعنى .

وكذلك ينطلق التابع وسيده في مهمتهما الحماسية
الهاذرة . وان دون كشوط لعل يقين من ان ساحرا
يحول بينه وبين مقامراته ، وينجح سانشو بانسا في
أقناعه كذلك بأن السيدة دلشينيا نفسها قد سحرت .
فبعد أن كانت آنسة جميلة ، تحولت الى جارية ريفية

دميمة ، فقرر دون كشوط أن يفك سحر محبوبته .
وسمع من أحد الماجنين الذين يحاولون الهزاء به أن
المسئول عن كارثة دلشينيا هو سانشو بانسا ، ولن
تتحرر دلشينيا أذن من أسر السحر حتى يعاقب سانشو
بانسا نفسه بثلاثة آلاف وثلاثمائة جلدة على عجزه
الشجاع . ويشكو سانشو قائلا « لا أرى علاقة بين
الضربات على عجزى وسعادة ليدى دلشينيا » . فاذا
عرض عليه سيده مبلغا طيبا من المال لقاء هذا الجلد ،
غير رأيه ووافق قائلا « حسنا جدا ، سأفعل ما تطلب الى
وارفع السحر عن السيدة » . وهكذا يصحب دون كشوط
الى الغابة ، ويخلع ملابسه ويخفى نفسه وراء غيضة
من الشجيرات . ويطلق مع كل جلدة آهة رهيبة . ويقف
دون كشوط على الجانب الآخر من الغابة لا يستطيع أن
يشهد الجلد وتقشعر أوصاله رحمة بتابعه الأمين الذى
ينزل بنفسه ذلك العذاب - فاذا فرغ سانشو من الجلد
أمطرنا وابلا من الأمثال ثم انطلقا الى المفامرة التالية .

هذه المفامرة تذهب بهما الى قلعة أحد الأمراء وكان
الأمير قد سمع بمهازلهما فأغراها بسلسلة من المهازل
أشد هزءا ، ولعل هذا الرجل فيما يقول سرفانت أشد
أشخاص القصة غفلة لأنه (يجد كل هذه اللذة فى الهزاء
بغيره من الغافلين) فيعرض كشوط على محاربة القطط
المسحورة ، ويورطه فى غرام ساخر مع إحدى وصيفات
الدوقة ويعرضه للاهانات والصفعات من كل جانب .
وبينا هو يمتع دون كشوط على هذا النحو ، إذ يرفع
سانشو بانسا الى منصب حاكم على جزيرة باراتاريا .
وهذه الجزيرة ليست فى الواقع غير قرية على الأرض
لا فى البحر . ولكن السذاجة قد بلغت بسانشو بانسا

لى حيث لا يميز بين الجزيرة وغير الجزيرة . وتقدم اليه
سخرية فخمة تنفخ فى أوداجه عظمة الملك ، وتنهال
عليه الصحاف زاحرة بأعلى الأطمعة ، متبلة بأشهى
لتوابل ، والى جانبها دنان الخمر من نبد عطر ، فتصرخ
حشاؤه فى طلب الطعام . ولكن طبيب القصر يحذره
من أن يمس شيئاً مما وضع على المائدة . ففى الجزيرة
جواسيس قد عقبوا العزم على دس السم فى طعام
الحاكم وشرابه .

ما أبلغها من تعاسة ياسانشو . انه على عجزه عن
الاستمتاع بملذات منصبه الرفيع ، مضطر أن ينهض
بمسئوليات هذا المنصب . فهم يجلسونه على منصة
القضاء ليقضى فى المنازعات بين رعاياه . وعلى حين بفتة
يصير رغم كل جهالته آية فى العدل ، ويظل عشرة أيام
يحكم الجزيرة بقلب عامر وجوف خاو . ثم يقرر أن
يتنحى عن مجده الملكى . يفعل ذلك راضى النفس خاصة
وأنه قد سمع أن الجزيرة مهددة بالفتور فيقول أن
صعلوكا حيا لخير من ملك ميت . ولا يطلب لقاء خدماته
فى حكم الجزيرة غير حفنة من الشوفان طعاما لآتانه ،
ونصف قطعة من الجبن ورغيف طعاما له هو .

ويعود الى دون كشوط فيعرض خدماته فى مغامرات
سيده المقبلة ، ولكن مغامرات المجنون الجديدة موشكة
على النهاية . فقد حاول أصدقائه بكل ما استطاعوا من
وسيلة أن يبرئوه من جنونه . واهتدوا أخيراً الى خطة
عملية ، فقد أغروه بمبارزة صمويل كاراسكو ، وهو من
أصدقائه القدماء ، تنكر فى شخصية أخرى ، واستخفى
فى زى فارس جوال وقيل لدون كشوط أن الفارس
المفلوب عقابه أن يخضع لإرادة الغالب . فلما انتصر

كاراسكو بسهولة على دون كشوط ، أمره بالعودة الى منزله ، والا يعرض نفسه بعدها لأخطار الفروسية ابدا . ولكن الشارد دون كشوط لايرعوى عن غيه . فهو بعد اذ هجر المغامرة ، قرر أن يتخذ له مهنة تعدلها جنونا . هي مهنة الراعى العاشق . ولكن مرضا عضالا يصيبه فينجيه من جنون نهائى . فاذا ما اقترب دون كشوط من يومه الأخير عاد اليه عقله . (انى أنعم الآن بعقل حر نافذ لا تحجبه سحابة الجهل التى أنشأتها القراءة المستمرة والانكباب على كتب الفروسية . لقد كنت فى حياتى غافلا جهد الغفلة . ولكنى سأحاول ان اكون فى مماتى ادنى الى العقل شيئا) .

- ٦ -

لقد بدأ سيرفانت الجزء الثانى من دون كشوط فى كسل وتردد . ولعله ماكان ليكمله لولا ان نافسه مزور محتال ، ذلك المحتال الذى كان يتخذ لنفسه اسما مستعارا هو (افلاندا) وقد أصدر هذا المحتال تمة مزورة لدون كشوط . فاستشاط سيرفانت غضبا من هذه الجرأة ، وسارع بانجاز التمة الصحيحة وقدمها للعالم سنة ١٦١٥ .

وحسنا فعل . لأن العالم التالى قد طوى حياته . فيالهما من فيلسوفين مجنونين حبيبين الى النفس ، دون كشوط وسيرفانت ، قد كتبت لكليهما نعمة العيش فى غفلة ، والموت فى حكمة .

ذاشيال ديفو

(١٦٦١ - ١٧٣١)

- ١ -

هذا الرجل كما قال أحد معاصريه - كانت أمه الزئبق ، وكان أبوه الشيطان . والواقع ان مؤلف (روبنسن كروزو) كان من أشد رجال عصره قلقا . ولم تكن الملائكة تبارك هذا القلق دائما . كان طوال حياته يحاول خدمة سيدين « الله والذهب » وبهذا الولاء الموزع لم يستطع ان يخدم أى السيدين فى اخلاص كاف . فهو قد أعد للعمل فى الكنيسة لكنه اشتغل بالتجارة . فكان يبيع الفزل والجوارب والنبيد والمحار والآجر والبلاط والمنازل والأفكار . وانغمس فى السياسة ووهنت قواه فى السجن . وأوقف فى مكان التشهير . وكان يتردد على منازل أهل النفوذ . وكان يدلف اليها من الباب الخلفى عادة . . . وكان يعاشر الثوار والمنبوذين . وكان يتحدى الأمراء بوصفه أحد المنشقين على الكنيسة ويخدمهم بوصفه جاسوسا . وقد أصاب الشراء عدة مرات ومات مختبئا . هاربا من دائنيه . وألف أكثر من ثلثمائة كتاب . . ولا يقرأ منها الآن غير ثلاثة فقط . روبنسن كروزو . ومول فلاندرس وصحيفة عام الطاعون

(Ajoureal of the Plague Year)

كان يدخل في تركيبه كل نشاط انساني تقريبا ، طيبا كان او شريرا . وكان كالارض الحية تعمرها الريح والصخور والأنهار والظلال والأزهار . وتعلوها شمس العبقرية التي تحيل المنظر المألوف الشتيت الألوان الى جمال رائع .

لكن لننظر عن كثب الى هذه الشخصية الشتيتة الألوان المسماة دانيال ديفو .

كان في صباه يدعى (دانيال فو) ابن بائع الشمع (جيمس فو) ولم يوقع (د. فو) الا بعد أن تجاوز الأربعين ثم وقع ديفو ، ثم دانيال ديفو . وأخيرا شاء أن يلائم بين مركزه واسمه . فابتاع شعارا للأسرة . واخترع سلسلة من النسب تؤدي به الى اصل نبيل .

لكن أباه لم يكن في شك من انه براء من أية نسبة الى النبلاء . فربى أولاده وفق التقاليد الصحيحة للطبقة الوسطى الانجليزية . وكان مشقا على كنيسة انجلترا . فأوحى الى أسرته بروح البرم - ودرب دانيال منذ نعومة أظفاره على ان يكون افاقا لايهدأ ، وناقدا للحياة دقيق الملاحظة .

لم يكد دانيال يشب عن طفولته حتى حلت بلندن كارثتان مروعتان . هما الطامون الكبير ١٦٦٥ والحريق الكبير ١٦٦٦ وخرجت أسرة فو من هاتين الكارثتين بدون ان تصاب بسوء . ولكنها أصيبت بالدعر .

(ان الحياة فرار دائم من الخطر) ومحاولة مستمرة لتحصين النفس من الخطر . . خطر الموت ، وخطر الفقر ، فالطامون والنار قد جلبا ذلك الجوع الذي قتل آلاف الأسر . فيجب على آل فو أن يحرصوا على ألا تصيبهم

مثل هذه المأساة « دافع العوز يابنى غن نفسك ، وحاربته طول حياتك » .

لقد حاربته جيمس فو نفسه ونجح في كفاحه نجاحا لا بأس به . فأبدل ببيع الشمع بيع اللحم فلتن تخدم اللحم لأجدى عليك من أن تجلب النور . وتسمح له حاله الآن بأن يفكر في تعليم أبنائه تعليما حسنا . فيبعث بدانيال الى (أكاديمية) خاصة قائلا أريدك أن تكون قسيسا والا فكن تاجرا . ولكنى أريدك على أى حال أن تكون سيدا ناجحا .

فقرر دانيال أن يحترف التجارة عملا بنصيحة أبيه . فان طريق النجاح غاية في الوعورة على قسيس بالكنيسة المنشقة . وهكذا نجده في سن العشرين يزور حوانيت لندن وسيطا في بيع الجوارب . وكان شابا نشيطا مليئا بالأفكار خاويا من المال . وكان على هامش نشاطه يتجر بالمشروبات والطباق والأقمشة ، والمحار ، والفلايين ، والسعوط . فكل شيء كان يدير طاحون مطامحه المالية .

كان شابا ذا مواهب قوية ، وأفكار ايجابية . لكنه كان قلما يعمل وفق أفكاره . فانه لينصح بعدم المبادرة بالزواج . ويتزوج وهو بعد في الرابعة والعشرين . ولكن هذه الخطوة كانت الى المهارة أقرب منها الى الاندفاع . فقد منحته زوجته بائة قدرها ٣٧٠٠ جنيه . وانه لينصح أصدقاءه بالابتعاد عن السياسة وينغمس هو في تيارها فيشترك في ثورة (نموث) التي نشبت ضد العرش وكاد يدفع حياته ثمنا لحماقته .

وشفى من ثورته زمنا لكنه لم يشف من عدم مبالاته . فقد أسرف في توظيف أمواله في سفن التجارة وابتاع

منزلاً بالمدينة ومنزلاً بالريف وجازف في كل مشروع جرى مر بخاطره . وأن الاسراف في التجارة لا خطر من الاقلال منها . فهو يجد نفسه في أوائل الحلقة الرابعة من عمره وقد أفلس واستدان مبلغ ١٧٠٠٠ جنيه .

ثم تأتي فترة من القضايا ، والقضايا المقابلة ، واتهامات بالحنث باليمين وأبتزاز والتزوير . وبذل مجهودا يائسا لأن يعوض بقلمه ماحاق به من خسائر ، فأخذ يتجر ببضاعة جديدة ، ببضاعة الفكر . فكتب عددا من القصائد والنشرات ووجد أنها دعامة ضعيفة لرجل تتكاثر أسرته . لذا فهو يعود الى التجارة ويدير نصيبا حكوميا ويشتغل محاسبا في ادارة الدخل ويصبح مستشارا قديرا لنظام العملة البريطاني . لكنه وجد ان رقيه في وظائف الحكومة يسير في ببطء لا يساير طموحه الذي لا يهدأ . فكان تواقا الى ان يشتغل لحسابه الخاص . فجمع من جديد بضع مئات من الجنيهات ، فانه أملس اللسان ناعمه كما هو سيال القلم حاضر العبارة . وافتتح مصنعا للأجر والبلاط ووجد ان نجاحه قد فاق أحلامه ، فاشتري عربة ومنزلاً جديدا . وما مضت أعوام قليلة حتى كان قد أدى معظم ديونه .

وخير ما في الأمر انه وجد وقتا للكتابة فهو في سالف عهده قد حمل نفسه على الاشتغال بالأدب كما تحمل النفس على حرفة مؤلمة . أما الآن فهو يعود اليه بوصفه ملهاة ممتعة . فكتب عشرات من النشرات في كل الموضوعات مهما تنوعت . فتناول انشاء الطرق وتحرير المرأة والنعي على قوانين انجلترا الظالمة فكلها قوانين أشبه بعش العنكبوت الذي يمسك بصغار الدباب بينما تقتحمه كبار الحشرات ، كما كتب قصيدة تهكمية عنوانها

« الانجليزى الأصل المولد » The True Born English man وهو يندد فيها بقسوة البريطانيين على المهاجرين الأجانب والهولنديين منهم خاصة . وكان من أثر هذه القصيدة أن كسب ديفو قدرا من الشهرة . وليس هذا فحسب بل وكسب كذلك مودة الملك . فقد كان وليم الثالث نفسه هولنديا فجازاه « أعظم الأمراء وأحسنهم » كما يقول ديفو « بما جاوز طاقته على الاستحقاق » فقد أصبح ابن تاجر الشمع فى عامه الأول بعد الأربعين مستشارا للملك . وكان ديفو فخورا ، وحق له أن يفخر ، بما أحرزه . ولكنه لم يكن يدرى شيئا عن تلك المزالق التى تنتظره فى قابل أيامه .

- ٣ -

كانت متاعب ديفو ترجع الى حد ما الى تناقض عجيب فى خلقه . فهو ابن تاجر منشق ، وهو خليط متناقض من الطموح المادى والتماسك الخلقى ، وكان طموحه يسيطر أحيانا على خلقه . ولكن خلقه كان فى احيان أخرى يسيطر على طموحه . وهو ألا يكن دائما فوق مستوى شبه النفاق فى معاملة شركائه فى التجارة فهو لم ينزل قط الى مستوى النفاق بعقيدته المتطهرة . فهذه العقيدة المتطهرة العنيدة طالما أغرته بالسعى الى الكوارث وسط مجالى الرخاء . فهو فى ميدان السياسة كثيرا ما باع قلمه . لكنه فى ميدان الدين لم يبع ضميره قط . بل انه على نقيض ذلك قد حافظ على حماسه فى دفاعه الباسل عن قضية المنشقين المفضية فى وجه برلمان معارض . وقد بلغت إحدى نشراته الدفاع عن المنشقين من الايلام بالبرلمان الرحى حى
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

بالقبض عليه فاختبأ ديفو ومنحت جائزة قدرها خمسون جنيها لمن يعثر عليه « هو رجل متوسط الحجم في نحو الأربعين أسمر اللون وشعره داكن لكنه يرتدى شعرا مستعارا ، ذو أنف روماني ودقن مدبية وعينان رومانيتان وتؤلولة كبيرة قرب فمه » .

وعثر عليه وفي التاسع من يولييه عام ١٧٠٣ حكم عليه بأن يقف ثلاث مرات في مكان التشهير وأن يؤدي غرامة قدرها ٣٠٠ مارك وأن يرسف في السجن ماطاب للملكة آن أن ترسف . فالملك الذي كان يرعى ديفو قد مات اذ سقط عن صهوة جواده .

ولكن هذا التشهير العلني الذي قصد به اذلال ديفو قد استحال الى نصر . فالدهماء بدلا من أن يقذفوه بالبيض الفاسد أو السمك النتن كما جرت العادة كانوا يحيونه بالهتاف والصفيق . لأنه رجل جرؤ على أن يقول قالة ، فكانت رحلته من مكان التشهير الى السجن أشبه بموكب الفاتحين الفزاة . ولكن باب السجن لم يكد يوصد عليه حتى نسيه المعجبون . وظل عدة شهور سجين زنزانتة ماطاب للملكة آن . كانت تبفض المنشقين . وكان مصنع الآجر الذي يملكه يدب اليه الخراب وكانت أسرته تشرف على الموت جوعا ولولا دهاء الوزير الجديد روبرت هارلي لجاز أن يظل في السجن طول حياته . وكان هذا السياسي الكبير يكره مبادئ ديفو الدينية على انه كان على حظ من الدهاء مكنه من استغلال مبادئ ديفو السياسية ، او ان شئت الدقة فقل تحرر ديفو من المبادئ السياسية . فقد لاحظ ان قلم هذا الكاتب السلس يستطيع اللعب البهلواني على حبل السياسة فهو يمدح الأحرار آنا ثم يمدح المحافظين آنا . وكان هارلي نفسه من المحافظين لكنه يشوق الى كسب

مودعة المعتدلين من الأحرار فساوم ديفو ... ووهبه
حريته في مقابل خدماته الأدبية .

وقبل ديفو ما عرض عليه وأصبح لسان الحكومة .
فأنشأ جريدة أسبوعية (The Review) بمساعدة مالية
من راعيه ، وأكد ديفو انها مجلة متحررة من التعصب
والحزبية ولكن القراء كانوا أعلم ببواطن الأمور فالألفاظ
في الريفيو كانت لديفو ولكن الصوت كان لهارلى .

ومن الانصاف ان نقول انه لم يجد مشقة كبيرة في
تقليد صوت هارلى . فهارلى كان من أحرار حزب
المحافظين . بينما كان ديفو من أحرار حزب الأحرار .
والحرية مهما تتخذ من أسماء ومعسكرات فلها نفس
اللون في كل مكان . ان ديفو يشعر - ولعله على حق -
انه يخدم قضية بلاده اذ يحاول جمع المعتدلين في
الحزبين على التفاهم .

وكان معنى هذا ان يبدل ديفو جهدا شاقا ويلقى
كثيرا من العنت وقليل من الأجر . فلقد كان يكتب كل
كلمة في كل عدد من أعداد المجلة الآن هارلى لا ياتمن
انسانا غيره على عمل بهذا القدر من الدقة . ولكن ديفو
رغم دماثته ودقته قد وازب على كسب عداوة المتطرفين
في كلا المعسكرين اذ كانت حياته الصحفية حربا دائمة
على القذح والتنديد والاثهام والتهديد . . وحربا على
الفقر ، فان هارلى ليدفع وعودا خلاصة لا أجرا محددًا .

وطالما اذل ديفو وحمله على استجداء الأجر الذي
استحق الأداء من زمن طويل « ان على الآن واحسرتاه
ان أطعم أسرة من سبعة أطفال » وكان هم هارلى ان
يحتفظ دائما بولاء عبده وكان سبيله الى ذلك الا يدع

العبد يطمئن الى المستقبل .

وتحقيقا لهذه الغاية ظل هارلى يزيد كل يوم توريطا لديفو في حبائل منظمات الحكومة السرية ، فأحاله باختصار الى جاسوس ، أو وكيل سرى كما كان يسميه تجملا ، وكانت مهمة ديفو بوصفه وكيلا للحكومة أن يتنقل في البلاد متخذا له اسما مستعارا وأن يتحدث الى الناس ويتحسس أعمالهم ويتعرف الى رأيهم في ملكتهم ووزيرها .

وفي صيف ١٧٠٤ بدأ ديفو رحلته التجسس فوجد هذه الرحلة حبيبة الى نفسه كما اعترف بذلك . فهو طلمة بطبعه يحب صحبة الناس وملاحظة عاداتهم ودراصة شخصياتهم وتحليل أفكارهم . فجعل من نفسه مشيرا صديقا للناس ، لا جاسوسا فضوليا عليهم ، وليس هذا السبيل أقل تحقيقا لما رمت اليه الحكومة . ذلك ان ديفو قد نجح في أن يستميل نقاد العرش بدلا من ان يحاول دمعهم بالجريمة .

وكانت خدماته قيمة بشكل اخص في دعم الوحدة بين انجلترا واسكتلندا لقد حياه الناس بصيب من الحجارة حين وصل اسكتلندا اول مرة وهاجم منزله في تلك الليلة جمهور ثائر من أعداء الانجليز هاتفا (يسقط الجواسيس لا وحدة مع انجلترا) وهرب ديفو من باب خلفى فنجا بأعجوبة . ولكنه استطاع تدريجا أن يكسب آذان قادة اسكتلندا وقلوبهم ، واستطاع آخر الأمر أن يكتب الى هارلى (انى الآن مرتاح الى رؤية ثمرة كل ما بذلت من الكد والكفاح في مواجهة الدهماء .. وهذه الثمرة هي الاتحاد .. وانى اكتب اليك ذلك بينا مدافع القلعة تقصف احتفالا بالاتحاد .. ولعلى أستطيع أن أقول لك

دعنى الآن أرحل من هنا فقد رأيت عيناى نهاية الشقاق) .

ولكن هارلى يرغب عن السماح له بالرحيل . فديفو رقيق قيم جدا بحيث لا يصح تحريره بهذه السرعة (فأبقى يده على المحراث وأطعمه آمالا جوفاء) فبعث الى ديفو بصك بمبلغ مائة جنيه وهو مبلغ وفى باطعام أسرته ولم يصلح دعامة لآى مشروع مادى . واستمر ديفو يخدم سيده ويرسم خطة لمستقبل اعمر بالرجاء يجلب حياة أسعد ، ليس لشخصه وكفى بل للعالم أجمع . استمر فى عمله وكيل مخابرات لهارلى ولكنه استعان على العيش ببيع فرش الموائد فى اسكتلندا وكتابة عدة نشرات لاصلاح المجتمع . فهو يدعو سنة ١٧٠٩ الى انشاء عصبة أمم ومحكمة عالمية وكان الملك لويس الرابع عشر قد أصيب لتوه بهزيمة نكراء على أيدى الجيش البريطانى فكتب ديفو يقول (أن فى استطاعة انجلترا وحلفائها الآن أن تمنع الى الأبد أى حرب جديدة فى أوروبا ويمكنها أن تقيم من نفسها حكما فى كل المنازعات والخلافات التى يمكن أن تنشأ فى أوروبا سواء بين مملكة ومملكة أو بين ملك ورعيته . فهى تستطيع أن تجعل من مؤتمر الحلفاء محكمة استئناف يلجأ اليها كل من أودى أو اضطهد . . فتحمى الدول الصغيرة من ارهاب جارائها القوية فلا يقتات قوى على ضعيف بعد اليوم ولا يبتلع القادر العاجز ولو شاء هذا الاتحاد (الذى يتكون من أمم تكره العدوان) لاستطاع منع نشوب الحرب حتى ينهى العالم . .) غير أن أنصار العزلة فى القرن الثامن عشر لم يعيروا ديفو أذنا واعية ، فكان شأنهم معه كشأن أنصار ودررو ولسون .

وتمضى عدة سنين لا نعرف فيها مكان ديفو . لقد دارت دائرة الحظ السياسى على هارلى فنزل من علياء سلطانه الى غيبة السجن . وأخذ معه عددا من أنصاره منهم ديفو . وكانت هذه الفترة الأخيرة فى السجن شفاء لديفو من غرام السياسة « وإذا قال الواعظ ان الأمر كله لا يعدو الزهو والحق فانى أرى قوله يصدق على هؤلاء الساسة . فكل شئ لديهم تظاهر ونفاق كرية ، سواء فى ذلك كل حزب وكل عصر وكل عهد . فهم ان كانوا خارج الحكم كافحوا لتوليته ، فان ولوه كافحوا لاستبقائه فى أيديهم . ولم نكد نسمع بحزب أو بشخص الا وقد قارف — بقدر يزيد أو ينقص — جريمة تغليب مصلحته على مبدئه » .

لقد تورط ديفو شخصا فى السياسة ، فلم يفد مصالحه ولا مبادئه . وهاهوذا مريض الجسم متقرز العقل ، قد فسم صلته أخيرا بهذه العبودية السياسية واختفى فى الضباب .

ثم يعاود الظهور وقد شارف الستين ، فيطرق عظماء لندن رثاء له ورحمة ما أشنعه من سقوط ! لقد صار مستشار الأمراء راوية قصص للطاهيات وهان أمر مؤلف الأبحاث السياسية فصار يروى مغامرات بحار تحطمت سفينته . ولم تدرك غير قلة ضئيلة من معاصريه ان دانيال ديفو حين هان فالف (روبنسن كروزو) قد سما الي المجد الخالد .

لقد اهتدى ديفو الى نفسه آخر الامر فهو لم يخلق تاجرا ولا كاتب نشرات ولا سياسيا بل خلق قصاصا . وكانت حياته كلها بحثا عن هذه الحقيقة . ولم يكن انتحاله تلك الشخصيات المتناقضة ، شخصية الصانع والتاجر والمنشئ والمحافظ والناشر والرقبى والجاسوس ، لم تكن هذه غير محاولة لاشعورية لأن يفهم بواطن ألوان النشاط المتنوعة فى العرض الانسانى (فانك ان شئت وصف خطيئة أخيك فعليك أن تتقصص اهابه) لقد انتحل شخصيات الناس من شتى الألوان وهو الآن يفسر الانسان . فكانت الحقبة الأخيرة من حياته نشاطا فى الخلق مدهشا وكأن وهن جسمه قد زاد من نشاط عقله فصار خياله يشكل القصة بعد القصة فألف ملك القراصنة ، ومغامرات دنكان كامبل ، وذكريات فارس ، وكابتن سنجلتن ، والكولونيل جاك ، ومول فلاندرز ، وصحيفة عام الوباء ، وتاريخ الشيطان . فكيف استطاع رجل فى هذه السن المتقدمة أن ينتج كتبا جديدة بهذه الكثرة ؟ كيف يجد مع ذلك فسحة من الوقت لمغامراته التجارية ؟ على أن ديفو وان شفى من داء السياسة فانه لم يشف قط من عدم المبالاة . فظل حتى نهاية حياته يواصل العدو وراء ذلك الوعاء الذهبى فى نهاية قوس قزح . ومهما بلغ ربحه من قصصه فقد خسر فى الاستثمار المهمل . وورط معه فى هذه الاستثمارات غير الحكيمة طائفة من أقرب صحابه وأقربائه وكانت منهم ابنته (هانا) وشاء آخر الأمر أن يعوض خسائره فى التجارة فألف (المرشد الكامل للنجاح فى الأعمال) ويهدف هذا المرشد - كما قال ديفو - الى تعليم تجارنا والشباب

البادئين منهم خاصية فقد كان ديفو بارعا في ازجاء النصح . . ولم يكن بارعا في اتباعه فتحن نراه في عامه الخامس والستين وقد تورط في قضية اتهم فيها بالاحتيال وكان الاتهام ظالما على الأرجح .

وبعد أربع سنين لا نعر له على اثر . فقد اختبأ من دائنيه وليس من دليل على مكانه غير خطاب وصل الى صهره (هنرى بيكر) في ١٢ اغسطس سنة ١٧٣٠ مهور بتوقيع د. ف. التمس . أما تاريخه فهو (نحو ميلين من جرنتش كنت) يتكلم الخطاب عن محنة رجل مسن مثقل بوطأة من الأسى لا تحتمل ، مهمل من أسرته ، كسير القلب اذ عامله ابنه معاملة خلت من الانسانية (والأغلب ان ابنه قد رفض اعطاءه المال اللازم لمضاربة طائشة جديدة) « وقد ألح عليه مرض ثقيل جدا فهو طائر اللب اذ يحرم العزاء في ضمة أخيرة من ابنته وزوجها فقد بات لا يحتمل مجرد الحضور لرؤيتهما والعودة في الحال» وأما ذهابهما لرؤيته فأمر مستحيل لأن مخبأه يجب أن يظل سرا لا يعلمه أحد حتى أعز الناس عليه ثم يختتم الكتاب في نغم مستسلم (انى لشديد القرب من خاتمة مطافى أسير مسرعا الى حيث يستريح أهل العناء ويقصر أهل الشر عن آذاهم ، فمهما يكن الطريق وعرا واليوم عاصفا ، ومهما تكن الوسيلة التى شاء الله ان يمتنى بها فانى أريد ان أختتم حياتى وفي قلبى هذا الدعاء « نحمدك اللهم ») .

وهكذا . . . بعد أن أسلم بحار السفينة المحطمة روحا الى الله . . أبحر وحده مجردا من الصحب . . ميمما شطر الجزيرة المجهولة في الظلام .

جوناثان سويفت

(١٦٦٧ - ١٧٤٥)

- ١ -

قصة جوناثان سويفت هي مأساة عملاق وثقه الأقزام بالأغلال ، ولكنها أيضا مسلاة ساخر عرف كيف يضحك من أغلاله ، كان له عقل بالغ القوة في جسم بالغ الضعف . وهو مزاج يجعل من صاحبه اما واعظا مملا أو ماجنا لامعا حصيفا . وقد جمع سويفت بين الشخصيتين في آن . تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر . وتجلى وهن جسمه في نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مستمر يعاوده .

كانت حياته كلها في الواقع خليطا من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده - فمع انه ولد الأبوين انجليزيين فقد ولد في أيرلندا وقضى هناك معظم حياته . وبدأ في أخلاقه ذلك الأثر المزدوج ، أثر أسلافه وأثر بيئته . . . فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب . فقد أباه وسنه ستة أشهر فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته . فهي لاتكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثا في انجلترا حتى تبحر في سفينة دون ان تخطر سيدتها ، وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها . ولم يعد جوناثان الى أمه الا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير

للانجيل وكلف شيطاني باللهو والمزاح .

وفي السادسة التحق بمدرسة كلكني والتحق في الرابعة عشرة بكلية ترينتي بدبلن وهناك أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام . ولم ينل البكالوريوس الا بشق النفس . ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية « لوقاحته مع مساعد العميد » فعاد الى بلده يجلله العار .

ولسكنه وفق رغم وقاحته في الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل . وهو من أوساط الأدباء . وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لفظ حاقد مريب الأب الطبيعي لجوناثان نفسه . وأتاح له المنصب عشرين جنيها في السنة ومكانا على المائدة الثانية مع الخدم . ففنى السكرتير الألعى جيبا واضمحل شأنا ، فأقام بنسخ أفكار سيده الشيخ غير الألعى . فاذا فرغ لنفسه - وقليل ما كان يحدث ذلك - نسخ خواطره الشخصية بالشعر غالبا .

وفي أوقات فراغه هذه القليلة (أثناء تدريبه) وجد الشاب متعة أخرى في تعليم فتاة صغيرة تدعى ستيل هستر جونسون . وكانت طفلة شائعة في الثامنة ، تقيم بمنزل سير وليم . وكان الفموض والابهام يكتنفان مكانها من المنزل ، والأصل الذي تحدثت منه . فهي قد رسمت ابنة لرئيسة خدم سير وليم واد وارد جونسون أحد محصلي السيد . وأحبها سير وليم فكانت كعضو في الأسرة . وسرت شائعة - وقد يكون لها في هذه المرة مبرر - أن ستيل أيضا ابنة طبيعية لسير وليم . ومهما يكن من أمر هذه الشائعة فان سير وليم لم يقف عند تخصيص بعض ماله لها بعد وفاته بل جاوز تلك الى تربيتها تربية السيدات في رعاية جوناثان سنويفت .

وكان سويفت ينعم بتعليم ستيلا . أما هي فكانت تعبد بكل جوارحها ذلك المدرس الطويل الكادح ، ذا اللسان اللاذع والبسمة الوادعة .

ولبثت هذه العلاقة الممتعة بين التلميذة ومدرسها تسع سنين يعتمدها المد والجذر . ثم تغير عمل جوناثان سويفت . فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن . وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحي ، ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسة الانجليزية لا أن يكون فنا على فرعها الأرنلدى . ولكن أمنيته هذه العريضة الوحيدة وهى بلوغ منصب هام فى كنيسة انجلترا كانت الشىء الوحيد الذى ينكره عليه رؤساؤه أشد الانكار . فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعبة . فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها ، فقد تلقى بأية قبلية فى أية لحظة على عقيدة اخوانه فى الكنيسة . وكان الجميع وقتئذ يعرفون انه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا وان لم يجرؤ على نشر ماكتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل) .

وهذا العنوان كما ذكر فى المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة . فهم اذا قابلوا حوتا القوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة . وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة . ثم يمضى فى الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ، ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب خلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية) ، ومارتن (كنيسة انجلترا) ،

وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب : هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتكم وصحتكم ماحييتهم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها . كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعا فى منزل واحد كما يعيش الأخوة . فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل .

وأخذ الأخوة الثلاثة معاطفهم — كما يقول سويفت — وسرعان مانسوا وصية أبيهم ، وأخذ كل منهم يعدل فى شكل معطفه مرات ، حسب تغير النظر الى شكل الأزياء .

وأخيرا نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف ، وصار الناظر اليه لا يتبين فيه المعطف الذى اعطاه اياه أبوه . ثم يفترض بطرس بعد ذلك انه — دون شريك — صاحب المعطف الحقيقى الوحيد ، ويعلن فوق ذلك انه وحده يملك بيت أبيه ، وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء .

يقول سويفت وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الأنجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطته الأصلية المعقولة .

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح فى هذه المحاولة نجاحا لأبأس به فقد انتزع من المعطف كل وشى لا ضرورة له ، ولم يحرص الا على استبقاء تلك الحلى التى تفنى فى تقوية الثوب أو اخفاء عيبه . واما جاك فاندفع متحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة ، فاذا أتى الناس ينظرون اليها يضحكون منها . . كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيفها الدوق الحديث . ولم تنشر قصة البرميل الا بعد أن مضت على كتابتها

عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف . وهذه القصة
وان يكن المقصود بها ان تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف
فضل كنيسة انجلترا على غيرها فانها قد فشلت مع ذلك
في ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار اساقفتها . لقد
ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى .
لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته ،
وقرروا ان هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته ،
وانه بحاجة الى ان يدارى والى ان يراقب .

- ٢ -

ويلقى سويفت في شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع
صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا : « يا الهى
يالها من عبقرية تطامنت لى حين ألقت ذلك الكتاب » .
فهذه هى مأساته التى جلبت عليه النحس . ان عبقريته
أجل من أن يفهمها معاصروه . فأوجست العقول الصغيرة
خيفة من العقل الكبير ، وعمدت الى ابقائه أسيرا فى
منصب مغمور بعد منصب مغمور ، من كنيسة دبلن الى
ابرشية ريفية فى لاراكور ، ومن كنيسة لاراكور يعاد الى
كاتدرائية سانت باتريك بدبلن . ولكنه لا يمنح وظيفة
مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرءوا على أن
يجاوزوا به وظيفة اسقف . لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت
وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا ، وتعشى مع رئيس
الوزراء ، ولعب الورق مع وزير المالية . كل هذا
ولا جدوى . وكلما طلب ان يعين فى أحد المراكز الهامة
بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب . لقد أوغل قلبه فى
الضنى والضم . وأرسل ملتمسه ذات مرة الى الملكة
مباشرة . . . وكانت نفس النتيجة السلبية . وظل

سويقت الأسقف أشهر نكرة في عصره .

ولكنه يحتفظ في ذلك كله بمظهر البشر وتمتلىء أيامه بالنكات والضحك ، فيما خلا الدوار الذي كان يختلف عليه دائما . وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات ، ذلك الرجل الطويل القوى الأسمر ذو العينين الزرقاوين النفاذتين والحاجبين الفزيرين الأسمرين والصوت الجهورى الواضح . أى قصص تلك التى كان يرويها وأى لغة تلك التى يتحدث بها خاصة وهو فى صحبة الرجال . وما أبهاه وما أشهمه مع النساء رغم ما يشاع من عيوبه الجسمية .

رجل يعلو محياه البشر ، ويضطرم صدره غضبا كأنه الأتون . فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه . لكن كتب عليه أن يمثل فى حضرتهم دور التابع . لقد قدم لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب أيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من سياسة إنجلترا هما بولنجهروك وهارلى .

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه . فالمرء فى لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة ، ولكنه ظل نديهما المهرج الأثير ، وان كان يهرج بلا مقابل ، ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل دفو من قبل ، ولكنه يفترق عن دفو فى أنه يرفض أن ينال جزاء عما كتب . وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس فى يده خمسين جنيها . فألقى الكاتب الثائر بالورقة فى وجه هارلى وغادر الحجرة مفضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى ، حتى زاره هارلى فى منزله ليعتذر له بنفسه . ان سويقت لا يبنى بعمله مالا ، بل يبنى وظيفة كبيرة .

وهذا ما عجز دائما عن بلوغه ، سواء من هارلى أو من
اى سواه . غير ان اقامته بلندن وان فشلت سياسيا
فقد كانت نصرا فكريا . ففدا سويقت الفارس المعلم فى
مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا
للتبارز باللسان . وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين
جميعا . وان لم يكن اكيسهم دائما . كان يضرب ضربات
عميقة حادة فاصلة . وكان حديثه يخلو من كل بلسم
ملطف حين يقصد الى الإيحاء حقا . قال أحد كتاب
سيرته : لم يتطامن أحد مათيا لسويقت من عظم حظه
من العقل ، وقلة حظه من المرونة والكياسة .

كان ذهنه فذا فى الأذهان ، لا يتلطف فى تمزيقه ذلك
الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة .. وكان ساخرا
قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع . ويتبدى
عقله الساخر فى تصرفاته الودية وغير الودية على السواء .
وكان يفعل دائما ما يدهش ويحير .. يفعل الشيء الذى
لا ينتظر . لأنه هو المنطقى السليم .

من هذا ما يرويه الشاعر إسكندر بوب فى قوله «ذات
مساء : ذهبت مع جاى (مؤلف أوبرا المتسول) لزيارة
جوناثان سويقت - انك لتدرى قوة مودتنا - فلما التقينا
قال سويقت «طاب يومكم . مامعنى هذه الزيارة ؟ كيف
انى لك ان تترك اللوردات العظام كلهم وانتما بهم شديدا
الكلف وتأتیان هنا لتزورا قسيسا مسكينا ؟ .. »

- لأننا نفضل رؤيتك على رؤية اى واحد منهم .

- ربما صدقكم فى ذلك من لا يعرفكما معرفتى . أما
وقد جئتما فأحسب ان من واجبى تقديم العشاء لكما .

- كلا لقد تغشينا يادكتور .

ـ تعشيتما ؟ هذا مستحيل . ان الساعة لم تبلغ
الثامنة بعد .

ـ لقد تعشنا فعلا .

ـ هذا عجيب جدا ! لكن لولا ذلك لكان على أن
أتى لكما بشيء . فلأفكر ماذا كنت محتضره ؟ . . اثنين
من سرطان البحر؟ . . كفاية . . ثمنهما شلنان - وفطائر
بشلن - لكنكما ستشربان معي كوبا من النبيذ . وان
كنتما قد تعشيتما قبل موعدكما المعتاد بوقت طويل
رحمة بجيبى .

ـ كلا . اننا لنؤثر الحديث معك على الشراب .

ـ لكن لو تعشيتما معي ، كما كان ينبغي عقسلا
لشربتما معي زجاجة من النبيذ ثمنها شلنان . اثنان
واثنان أربعة ، وواحد خمسة . كل منكما يخصه شلنان
ونصف شلن . تفضل يا بوب هذا ما يخصك ، وهذا
ما يخصك ياسيدى ، لآنى لن أصيب من المال شيئا على
حسابكما .

ويختم بوب كلامه بقوله « ولقد ارغمنا على قبول
النقود . رغم كل ما استطعنا قوله فى الاعتراض عليه » .

كذلك كان شذوذ العميد سويفت ، ذلك المتهمم الوديع
الرشيق العابس . ذلك الأديب الذى يصفق لعبقريته ،
والواعظ الذى يزدري لصراحته ، والعلم الذى يستشهد
بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد . عاد من إنجلترا
محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا . انه لجبار عملاق ،
مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام .

لكنه لم يفادر اقزامه الانجليز دون نكتة . فهو يشق
وطاب ادعاءاتهم فى شخص جون بارتريدج .

وكان هذا الرجل اسكافيا . حاول أن يجعل من نفسه شيئا . فهو ينشر كل عام تنبؤاته الفلكية وشاء سويقت. أن يفضح سخف هذه التنبؤات فنشر بتوقيع اسحاق بكرستاف تقويما ينافس ذلك التقويم ، ويشتمل على تنبؤاته الشخصية . وجاء في هذا التقويم الجديد: ان أول تنبؤاتي خاص ببارتريدج الفلكي. فقد استخرت طالعها فعلمت انه لامحالة ملاق حقه في التاسع والعشرين من مارس القادم حوالى الحادية عشرة مساء من اصابته بحمى عنيفة .

ومضى التاسع والعشرون من مارس ، واحتج برترديج بأنه لم يزل على قيد الحياة . ولكن يثبت بكرستاف على موقفه ، فينشر وصفا دقيقا مفصلا لموت مستر برترديج الفلكي في التاسع والعشرين من مارس ، فيكرر مستر برترديج قوله بأنه ليس ميتا . وحينئذ يعلن مستر بكرستاف في لهجة الجد ان جون برترديج لم يقف أمره عند كونه جثة هامدة . بل لقد جاوز هذا الى الكذب . وهكذا وقع في الحيلة المحتال . وظل بارترديج حتى آخر حياته « ميتا وكذابا » .

- ٣ -

كان سويقت رجلا غريبا ومن أغرب ما فيه علاقته بستلا Stella وفانسا Vonesa . وستيلا كما رأينا هي الصبية الصغيرة التي كان يعلمها وهو يعمل أمينا لسير وليم تمبل . فلما نمت صارت علاقتها به أقل من الحب ، وأجل من الصداقة . أما فانسا فقد قابلها في إحدى زوراته ل لندن وربطته بها مودة . ورغم انها أليق

في سننها بأن تكون من بناته ، فقد أختته حبا عنيها .
وبدا حينئذ ثالوث من أعجب ماشهد تاريخ الهوى .

وكان سويفت مخلصا لهما جميعا ، وإن لم يستسلم
لواحدة منهما . وهو يواظب على مراسلاته الحميمة مع
ستيلا وهو في إنجلترا . وحين هو بايرلندا يواظب على
مراسلاته الحميمة مع فانس . فإذا استقر به المقام
أخيرا في دبلن حيث اشتغل نائب أسقف سنت باتريك
وجد نفسه مثقلا بحمل ممتع وإن يكن محيرا . وذلك
لوجود كلا صاحبيه بالقرب منه . فستيلا تقيم في منزل
غير بعيد من كنيسة سانت باتريك ، وكانت إذا غاب
سويفت جاءت في كثير من الأحيان للإقامة في منزله .
وأما فانس فقد استأجرت منزلا في ضاحية لدبلن ، بدعوى
أنها وقد ورثت المزرعة فعلا فقد صار عليها الآن أن تعنى
بها عناية شخصية . ولم تاتق الفريمتان ستيلا وفانس
مطلقا . ولكن كلا منهما تعرف أمر الأخرى وتزعج
سويفت بفيرتها منها . وكانت فانس أشدهما تهورا .
كتبت الى سويفت خطاب اعتراف جاء به (لقد ولدت
عنيقة العواطف . وقد تجمعت عواطفى كلها في واحدة ،
هى تلك العاطفة التى أحملها لك والتى لا سبيل الى
وصفها . حنانيك ! شيئا من الرقة والا فقدت صوابى)
وأخيرا انحطمت المرأة تحت عبء عواطفها وكتبت وصيتها
في أول مايو سنة ١٧٢٣ وقد عمدت فيها الى اغفال اسم
سويفت وماتت في أول يونية دون دعاء الله أو القسيس
وفى يديها قصاصة من قصة البرميل .

وكانت ستيلا لا تقل عنها حساسية لكنها تسمو
عليها عقلا بكثير . وقد عاشت خمس سنوات بعد
غريمتها . وكانت على العموم عنصرا مهدئا في حياة

القسيس المجنون فهي امرأة قوية الخلق متيقظة العقل
وهي أميل الى مسامرة الفكرة الخاطئة منها الى معارضتها .
وكان العذر الذي تتسدرع به عادة - ونحن نستشهد
الآن بكلمات جوزيف اديسون (المسامرة طريق تمنع
الضجة وتوفر الوقت) ومع بغضها لأن تملك نصف قلب
محبوبها فحسب فقد كانت تقنع نفسها بعبارة لاذعة
تتفوه بها من حين لحين عن (عزيزى المرائى) وكانت
تدرك على العموم ان سويفت رجل غير عادى يجب أن
يعامل بلباقة غير عادية .

وهكذا عاشت حياتها اللبقة خادما له لا صاحبة .
وليس من دليل - كما يقول بعض معاصريه - على انهما
تزوجا يوما من الايام . فلما ماتت آخر الأمر تركت
فراغا خالدا في قلب العميد العجوز المحزون ومنذ الآن
سيفقدو سلوكه الخارجى كتفكيره الداخلى ينبىء عن رجل
محزون ممرور . كتب لأحد أصدقائه يقول « انى
لامقت العالم فقد أصبحت لا أصلح له البتة » .

- ٤ -

أصبح العميد سويفت لا يؤدى من الطقوس فى أيام
ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الأنجيل الذى يلحن فيه
أيوب يوم ميلاده . انه ليزيد كل يوم زراية بالإنسان
وخدمة لبني جنسه . فهو يتحمس لتخفيف أعباء
الاييرلنديين وهو يصلاهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه
حبا . وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل فى شيخوخته
وصار مطمحہ الذى غلبه على كل مطمح هو أن يخفف
هذه الآلام . حدث مرة ان اقترحت الحكومة الانجليزية
قانونا جائرا بالارلنديين فتحصدى الظلم بسلسلة من

الخطابات الشديدة المفحمة فاضطرت الحكومة الى سحب الاقتراح . وهذه هي الخطابات التي أمهرها سويغت بتوقيع م.ب درابير صاحب حانوت لبيع البضائع الأيرلندية والتي كسبت لسويغت شكران الأيرلنديين وعرفانهم على مر الزمن .

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير . لقد ساعدهم — كما قال — لاحبا لهم بل كراهة منه للعبودية . انه يعرف نلون الدهاء وتقلبهم فهم مستعدون لأن يهللوا لجراته في النضال عنهم . لكن أترأهم يحركون اصبعاً لانقاذه من مغبة جراته ؟ وهو يروى قصة لتوضيح هذه الفكرة . كان اسباني يهودى يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية ان يحرموا المتعة اذا هو أنكر التهمة ، فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين « موسى أقم على ثباتك » .

وظل سويغت على ثباته رغم الصبغة الطائشين والفضوليين الوحشيين في العالم ، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى في حشيه بايمانه وانفعالاته وسخافاتة واحتياله وحربه ، كان يذهله عدم انسانية الانسان نحو الانسان . انه فاقد كل ايمان بالعقل البشرى . وقد أعلن افلاس ايمانه بالانسان في نشرة يقف منطلقها المفحم في صف فريد حتى بين كتابات سويغت نفسه . عنوان هذه النشرة « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من ان يكونوا كلاً على آبائهم وعلى الوطن ، وللإفادة منهم في المجتمع » يتساءل فيها ما فائدة كل المقترحات التي تقدم تخفيفاً لوطأة الفقر الأليم والفاقة الملحة عن فلاحى ايرلندا ؟ ..

لماذا يضيع وقت حتى الآن في محاولة تعليم اللوردات الغائبين عن أرضهم أية مرتبة من مراتب الرحمة بمستأجرى أرضهم على الأقل ؟ لأعلبك من تلك الآراء الباطلة الخيالية السلبية . فان لديه - أى صاحب الاقتراح المتواضع - خطة عملية جديدة كل الجدة آمل ألا تتعرض لأدنى اعتراض .
وهذه هي الخطة في ايجاز .

« لقد أكد لى أمريكى من أهل الذكر أعرفه في لندن ان الطفل الصغير الصحيح البدن الحسن الرضاع يكون اذا بلغ عامه الأول طعاما غاية في اللذة والتغذية والفائدة الصحية . . سواء أكان مطبوخا أو مشويا أو مقعدا أو مسلوقا . ولست أشك أدنى شك في أنه يصلح كذلك محمرا أو مطهيا في بصل .

فليربى فلاحو أيرلندا أطفالا اذن ليكونوا طعاما للملاك الأنجليز . فالطفل يكفي طبقين اذا كانت مأدبة للأصدقاء . اما ان كانت الأسرة تتعشى وحدها فان الربع الأمامى والخلفى يكفيان اعداد طبق معقول . واذا تبل بقليل من الفلفل أو الملح فهو يصلح جدا لأن يسلق في اليوم الرابع خاصة في الشتاء .

ولست أنكر ان هذا الطعام سيكون غاليا شيئا . لذا فهو مناسب جدا للملاك الأراضى ، لأنهم بعد أن ابتلعوا معظم الآباء صاروا - فيما يظهر - أصحاب الحق الأكبر في الأبناء . ولقد حسبت تكاليف ارضاع ابن المتسول فوجدتها تبلغ نحو شلنين في العام . ولن يتبرم أحد من السادة - فيما أظن - بدفع عشرة شلنات في شراء جثمان طفل سمين . بذلك يصير المالك محبوبا من المستأجرين ، وتصيب الأم ثمانية شلنات ربحا صافيا وتكون صالحة

للعمل حتى تضع مولودا جديدا . ثم يدور سوط تهكمه دورته النهائية ... فيقول : يستطيع غلاة المقتصدين أن يسلخوا الجثة ... فان جلدھا اذا كسى كساء صناعيا صنعت منه قفازات رائعة للسيدات وأحذية ينتعلھا السادة المهذبون في الصيف .

قرأ السادة ملاك الأراضي هذه النشرة وأعربوا عن اشمئزازهم من بربرية الكتّاب ومضوا في طريقهم «الحضري» ... طريق اماتة المستأجرين الأيرلنديين جوعا على مهل . أما البربري فقد مضى في ثورة حقه وتبرم حق ساخرا من كل انسان .. باذلا صدقاته لوكب من المتسولين كان يقصد بابه يوميا انه يكره المتسولين والدينيا بهم مليئة كما قال « فانك لتجدهم بين الأغنياء كما تجدهم بين الفقراء فالغنى يستجدى مملكة والفقير يستجدى كسرة خبز » وكانت كراهة سويفت لضخام المتسولين أضعاف كراهيته لصفارهم . فهم كلما كبروا - كما يقول في رحلات جلفر - زاد ايلامهم للعين والأنف أما هو فلا غناء له في الاستجداء لأنه لا يجد في المال نفعا .

ويقول انه في هذا يحتذى حذو الله « وبوسعنا ان نعلم كم يحتقر الله المال اذا استعرضنا من اختصاصهم بالمال » كذلك مضى القسيس المجنون في طريقه الى الشيخوخة متفكها معنفا ، وقد خيل للناس جميعا انه يقف على رأسه، ذلك بأنه الوحيد الذي يقف على قدميه في عالم مقلوب رأسا على عقب .

- ٥ -

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة ، وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية ، رحلات جلفر ، وبعث

- ٨٨ -

بمخطوط القصة في ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ الى الناشر (بنيامين موت) وارسل مع المخطوط خطابا بتوقيع ريتشارد سيمبسون زعم فيه انه ابن خال لمويل جلفر وقال . . لقد ائتمنى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط في وصف رحلاته . . وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز . وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزاءها ان هناك شيئا من التهكم في موضوع أو موضوعين . ولكن الرأي متفق على انها لا تجرح أحدا . ثم يمضى مستر سمبسون في خطابه فيعرض مائتي جنيه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر .

ونشر الكتاب في خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى في اسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جلفر على غباء الجنس البشرى الهمجى ، فقد حسب كل امرئ انه ليس المعنى بهجوم الكاتب ، انما المعنى جاره . فوصل الم الكاتب ذروة لم يبلفها من قبل . لقد فشل في تحقيق ماهدف اليه « أردت أن اغيظ الناس وأستثيرهم لا أن أرفه عنهم وأسليهم » . وقصة رحلات جلفر هي مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملئ بالباطل والزهو . الا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد اتاح لهم أن يحكموه . اذن لقل الجشع ، وزادت الدماء . وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس . وقلت القسوة وزادت الرحمة . وقل البهرج وزاد المجد . وقلت الوقاحة وزادت الحكمة . كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول - طالما حاولت ان أنشئ صداقة بين عقلاء الناس جميعا وهم قلان يزيدوا على ثلاثة أو أربعة في كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا

العالم أمامهم سوقا . ولقد لقي سويغت أحد هؤلاء العقلاء ، فولتير - ذلك الشاب الفرنسي الثائر المنفى الى انجلترا لصراحة لسانه والذي قال (ان صناعتي هي ان أقول ما أعتقد) فجلس فولتير عند قدم القسيسين المجنون وتشرب فلسفته وكتب (مكروميجاس) تقليدا لرحلات جلوفر وعاد الى فرنسا يحلم باستئصال الأحقاد والمظالم من حكام العالم - ومضى القسيس المجنون يبحث بلا كلال عن عالم عاقل . وان جسمه ليطحنه الألم وقلبه ليصيبه الحزن المتكرر لفقد أعز أصدقائه « ان هبة العمر الطويل تشتري بثمن بالغ الفداحة » ولكي يقوى نفسه على احتمال عبء شيخوخة متوحدة كتب دعاء وجد بعد موته بين أوراقه التي لم تنشر « اللهم انك تهب نعمتك وتصب نعمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شيء . . . فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبو اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذي يفوق الوصف والذي نوشك ان نمنى به » . كان دائم التفكير في هناء الانسان . . ذلك السخاير الذي واجهه بنى الانسان بالعواء والشحناء .

- ٦ -

محي الآن تفكيره ، وخمدت آلامه ، وسكن عثاه ، وصار كل ذلك الى نسيان رحيم لقد خوى عقله من كل شيء وكان يقرأ « قصة البرميل » ذات يوم فقيل له انه مؤلف هذا الكتاب . فقال (كلا ان مؤلف هذا الكتاب عبقري) وكثيرا ما كان يرى وجهه الهزيل في المرآة فيقول في أسمى من لا يعنيه الأمر (رجل عجوز مسكين) وفي أيام ميلاده حين تدق النواقيس المشاعل تكريما له كان يسأل

- ٩٠ -

«من ذلك الرجل الذى يحبه الناس بكل ذلك الاخلاص؟» .

١٩ أكتوبر عام ١٧٤٥ - سماء صافية فوقه وعقل غائم في رأسه . ولكن الغمام تبدد لحظة من الزمن وسمع سويقت يتمتم «رباه عنايتك الساهرة بى فى رحلتى الأخيرة هذه» .
فاذا بدأ رحلته خرجت مدينة عن بكرة أبيها تدعو له بالتوفيق . لقد تعلموا عبادة ذلك الرجل العظيم الكراهة، العظيم الحب . أما كراهته فللظلم ، وأما حبه فللناس .

لورنس سترن

(١٧١٣ - ١٧٦٨)

- ١ -

كان جد لورنس كبير أساقفة (يورك) وكان يقف في مكان واحد كأنه تمثال من الجرانيت . وكان أبوه جنديا قلقل لا يستقر في مكان كأنه الريح .

« كان يوم مولدى فالأ سيثا لأبى المسكين » ، فقد ألقى به مع كثير غيره من الضباط الشجعان في أمواج الدنيا العريضة ، وهو خاوى الوفاض ، الأ من زوجة وطفلين . لقد كان « العوبة » يتقاذفها الالهة المتعادون في وزارة الحرب . وكانت تتحكم في مصيره أيضا زوجة مخصبة ، ولدت له رهطا من الأطفال الضعاف المصابين بفقر الدم . وتنفيذا للأوامر الصادرة الى الفرقة ، كانت تتبع زوجها من أيرلنده الى إنجلترا ، ومن إنجلترا الى أيرلنده ، ومن حامية في البر الى ميناء في البحر ، ثم تعود من حيث جاءت . وفي خلال ذلك ولد دون انقطاع وتدفن أطفالا دون انقطاع حتى أخذ الأصدقاء يتحدثون عن فقد (السيدة سترن) طفلا في هذا المكان ، وآخر في ذاك ، وكان الأطفال كانوا قطعاً بأئسة من قطع المتاع ، قد كتب عنوانها « من السماء الى القبر مباشرة » .

والحق أن الموت كان بالمرصاد لأكثر من نوع واحد من العمل في خدمة قوات الملك . ففي جبل طارق أصيب

أبو لورنس سترن ، وكان محارباً شديداً المراس ، بطعنه في صدره ، وكان ذلك في مبارزة من أجل أوزة . وقد وقع الحادث في غرفة صغيرة ، وأغمد كابتن فيلبس نصله بعنف في جسم سترن بحيث لصقه بالحائط لصقاً . وإذا الرجل المجروح في بادرة حاضرة يرجو (كابتن فيلبس) في أدب أن يتفضل قبل سحب نصله بأن ينفذ ما عساه قد لامس سن النصل من ملاط « لا يستحب ادخاله الى دمي » وشفى (كابتن سترن) من جراحه . وانسحب لينقه في جمايكا .

وهناك مات بالحمى . وقد ذهب مرضه بعقله أولاً . ثم جعل منه طفلاً ، وأخيراً لم يمض شهر أو شهران ، حتى كان يسير سيرا متصللاً ولا يشكو من شيء حتى جلس يوماً في كرسي ذي مسندين ولفظ أنفاسه الأخيرة .

وهذا المزاج من البدوات والكوارث ، وهو قدر كتب على الجندي الضئيل طوال حياته ، استمر في حياة الابن لورنس ، فهو كأبيه قد تقاذفته رياح المصادفات وبدوات رفاقه من بنى الانسان . لقد كتب لورنس عن أبيه قال (انك تستطيع غشه عشر مرات في اليوم ، اذا لم تكفك تسع) .

- ٢ -

وترك أبوه الأسرة وليس في حوزتها درهم ولا دانيق . ولكن الله قيض أحد أبناء العمومة لانقاذ الأسرة . فأنفق ماله لتزويد الصبي « النحيبيل العالم » بعلم الآداب القديمة (من يدري ؟ لعلك تكون يوماً كبير الأساقفة كجدك) فهل علم ابن العم ان الكتاب الأثير لدى لورنس

من كتب القدامى هو (فن الحب) لأوفيد ؟ وان مسلاة لورنس انما هى التماجن مع الفتيات ؟ وبعد دراسة القدر المطلوب من هوراس وافلاطون وبلىنى وشيشرون وحياة القديسين رسم قسيسا فى (سستون اون ذى فورست) احدى قرى يوركشير ، ونال دخل كنائس جديدة .

ثم أخذ يعيث بالسياسة مع عم له كان من ذوى النفوذ فى الكنيسة وأشرف على عدة أبرشيات أخرى . ثم بحث حوله عن زوجة يزداد بها ارتفاع منصبه . فتودد الى (اليزابث لوملى) مدة عامين .

وكانت الخطابات الغرامية التى كتبها هذا القسيس الشاب فذة بين خطابات الغرام فى أسلوبها الذى يحكى أسلوب القدماء ، وروحها المفعمة بتحنان العشاق .

وكان يختم قبلاته بمقتبسات من الفردوس المفقود للتلن ، وأشارت الى اوبرا المتسول ، ويؤكد تنهدياته بحواشى من (مقال عن الانسيان) لبوب ، واعترفت اليزابث انها أحبتنى . ولكنها لم تحسب نفسها من الغنى ، ولم تحسبنى من الفقر بحيث لانصلح للزواج . وأصيبت بذات الرئة . وكنت أجلس الى جوارها ذات مساء وقد كاد قلبى يتحطم لرؤيتها فى هذه الحالة الأليمة من المرض ، فقالت لى (ياعزيزى «لورى» لن أستطيع ان أكون لك ، لأنى أومن بحق انه لم يبق أمامى غير أبام معدودات ؟ ولكنى أوصيت لك بكل ما أملك . واطلعتنى على الوصية فقلبنى هذا الكرم على أمرى واختار الله لها الشفاء وتزوجنا) .

وقد بدأت حياتهما الزوجية بداية طيبة . فقد كان للسيدة ذوق موسيقى ، كان الراعى يعترف على القيشارة

(الفيلونسلو) وكانت هي تفنى فى مصاحبة أنغامه ولكنها كانت حياة مملة . لأن الزوجة كانت مملة . فان الفضائل كانت تزداد تعويقا لها حين تحاول مصاحبة زوجها فى قفزاته ووثباته العقلية الخفيفة الرشيقة . بحيث عجز الزوجان عن تحقيق الشرط الأول الزواج السعيد . وهو أن يمضى الزوجان فى الحياة كماها كأنهما شخص واحد . وكان سترن متوقد الذهن . يحمل خياله على أجنحة الضحك ، بينما زوجته تسير فى كد وعناء ، مثقلة القدم غير قادرة على الفهم .

لقد قرر على نحو ما - رغم ردائه الكنسى - أنه سليل أشهر الأسر بالخيال ، ان لم يكن بعراقة الأصل ، أسرة يوريكس الدنمركية التى يعمل أفرادها مضحكين ببلاط الملك . فليرحم الله يورك المسكين مضحك الملك وليحى خليفته مضحك العالم .

ذلك بأن العالم حزين ولا بد ان يسرى عنه . فلنلق جانباً بالجدة (فالجدة محتال ضار من أخطر الأنواع .. لأنه مكر) فصميم الجدة هو التصميم وعقد النية .. وهو حمل للجسم على تغطية عيوب العقل بصورة مبهمه؟ وهكذا أضاف لورنس سترن الى الأناجيل المقدسة الأربعة ، مجموعة تتكون من أربعة أناجيل علمانية . هى أناجيل النقش والعزف والضحك وعبادة الكتب . ورغم كل هذا كان يجد الوقت لهوايته المفضلة ، وهى البحث عن السعادة فقد أضرم النار فى صدر هذا القسيس الشاب عدد كبير من السببغات . وكانت مغازلاته العذرية ماثرا للفضيحة ومثارا للفيرة بين أفراد أبرشياته .

على أن هذه المغازلات لم تحل بينه وبين التقدم .

فهو لم يزل ينال الترقيات . ولم يزل الناس يعجبون
ببدواته . وعين قاضيا من قضاة الريف ، فكان يجرى
محاكمة الناس وفي عينه للاء مرح من السخرية بالنفس .
ولم تشهد انجلترا منذ أيام الراهب (تك) مثل قسيس
يوركشير هذا ، الذي يدفن الموتى ، ويعمد المواليد ويضحك
صحكا صاخبا حتى يخزه جنباه .

والضحك مقدم على الواجب أبدا ، وكان سترن يمر
بالحقول مرة يوم الأحد ليلقى موعظته في (استلنجتن)
حين نفركلبه الكشف سربا من الحجال (١) فعاد الى منزله
مباشرة ليحضر بندقيته . وترك الراعى « قطعانه »
الذين ينتظرون مقدمه في مركز عصيب . واتخذ لنفسه
خدما فاسما في فكاة شهية (مدنى الأمين) .

وكان عليما بعيوبه فترفق بعيوب غيره . ووجد نفسه
قد انتظم في زمالة رهط من الماچنين المشفقين يدعون
أنفسهم « نادى متقمصى الشيطان » وكانوا يجتمعون
في ضيعة بالريف أطلقوا عليها « قلعة المجانين » وفيها
كانوا يأكلون ويشربون ويمرحون ويتحاورون في الأدب
والحب . ويكتبون مقطوعات شعرية لفينوس وابنها في
المعمودية قرأوسا رابليه :

وحين يلتئم شملهم في الأمسيات ، (التى كلما ذكرتها
نفعتنى ذكراها)

بلقوا من المرح مالم يجاوزه جمع .

مما سبق الطوفان أو تلاه .

وقضى سترن الصنف الأول من حياته ينشد مثل

(١) نوع من الطير ..

تلك الأهداف ، قابعا في أحد أركان أنجلترا ، مغمورا .
قائما ملوما ومحبويا من قطيعة المرح السعيد ، فانه
على عيوبه قد عظم حظه من فضيلة واحدة ، العطف
الدافق على كل روح حى .

لقد نما عطفه من عذابه . فلقد كان لورنس سترن
رجلا مريضيا . . وكانت نظراته تكذب ضحكه . فانه
بجسمه النحيل الهزيل ، وردائه الأسود ، وسباقيه
العنكبوتيتين وصدره المتكسر الذى لا تقومه دعامة ،
ووجهه الذى لا يشتمل على خدين بقدر ما يشتمل على
طيات من الجلد خاوية ، يريد اقناع العالم - واقناع
نفسه - انه غير ما هو فى الحقيقة . فان الرجل تكاد
رئته المصابتان أن تنزفاه حتى الموت ولم يبق غير فتحتى
أنفه الضخمتين تهتران كما تفتق ذهنه . لقد بنت له
الطبيعة هيكلا مؤسسا ، استطاعت روح الضحك أن تبقى
عليه الحياة .

- ٣ -

وكان يمضى الساعات بعد أن ينحى عنه قيثارته
جالسا فى المكتبة يكتب . وكان مكتبة مكرسة لثالوثه
الفكاهى المبارك « لوسيان ورابليه العزيز - وسرفنت
الأعز » أولئك الرجال السدين تلقوا الأسى ، ومنحوا
السرور . وخلفهم من قريب تقف آلهة التى يدين لها
بحب أقل : مونتاني وبوب وسويفت . وكان سترن فى
مكتبته يصفى ولاءه للمعميات الفامضة القديمة ، ويقرب
فى صوفية الاغراب فى الضحك ، تلك الصوفية العجيبة .

وأعد فى هذا الجو كتابا أدهش العالم والهمه وأخزاه .
وهو كتاب (جديد مبتكر) لم يكتب مثله من قبل . فليس

له من شكل ولا منطق ولا وقار . وإنما هو قد لاحظ
حكمة العالم وغبائه ومأساته ومسلاته ومخاوفه وخطله
واحنه ، وخلط بين كل أولئك فى قصة تشبه الحياة نفسها
غنى فى الامتاع . وفقرا فى التنظيم . وبث فيها مذاقا
حريفا من فكاهة رابليه . واطلق على القصة المذهلة «حياة
وآراء ترسترام شاندى» .

وتلا الصفحات الأولى من الكتاب على بعض أصدقائه
بعد العشاء ، فسرعان ما ناموا . فجرح شعوره جرحا عميقا
وسار الى الموقد ، وأوشك أن يقذف بالمخطوط فى
اللهب . ولكن أحد الرفاق كانت لا تزال إحدى عينيه
يقظى ، هى العين التى ترى المستقبل البعيد . فجذب
المخطوط من سترن وأبقاه لقابل الأيام . وحتى بعد نشر
الكتاب كان سترن مرتابا فى أمر استقبال الناس له . انه
مخلوق ليس له قط من رأس ولا ذنب . فالمقدمة مثلا
مكتوبة فى منتصف القصة لا فى أولها . والفكاهة
قريبة الشبه جدا بالشیطان حين يتغزل فى نفسه (انك
تسرف فى الهذر مع عقلك الأريب . كأنما تعبث بعشيقتك .
انه بلسم ممتع للعشاق ، ولكنه قليل الامتاع للمتفرج
الخلی) .

ومع ذلك فقد كان يرجو أن يشبه الناس قصته بتلك
القصة التى نشرت فى نفس العام ، قصة كانديد لفولتير ،
وهى أفكه كتاب على مدى الزمان . ودعا آلهة كونيجوند
أن تضيف أسرة شاندى الى معرض الصور القصصية
الكبرى .

وأخذ الآن يتلقى التعقيبات من أصدقائه بلندن الذين
قرءوا النسخ المبدئية (ترسترام شاندى) « أن خير النقاد
دون استثناء يرون أن كتابك لا يستطاع أن تطلع عليه أية

امراة فاضلة » . فأجاب سترن ساخرا (أرجو استثناء الأرامل لأنهن لا يتقزنن قط بهذه السهولة) .

فاذا ذهب الى لندن بعد ذلك ، وجد للقصة نجاحا مظفرا . ووجد أنه قد صار من الأعلام بين يوم وليلة .

— ٤ —

ان معنى كلمة شاندى بلهجة يوركشير (مجنون متقلب مرح) وتلك خاصية يتسم بها الكتاب حتى فى طباعته . فالصفحات مليئة بفواصل ونجوم وأشياء تحكى المعازف ، وقيثارات تهدد الأنفاس ، وصفحات خاطئة الترقيم (وكأن هذا من خطأ الوراق) وصفحة خالية من الكتابة خلوا تماما . . وسلسلة عجيبة من الأسطر المتعرجة كأنها سجل الفلكيين . وخطوط فاصلة طولها بوصة فما دون . . فلما اخذ أهل لندن فى قراءة الكتاب شرعوا يحوقلون ويعجبون ويهرشون رءوسهم . ثم مضوا فى القراءة حتى استغرقوا فيها . يالها من آراء عجيبة ! يالها من شخصيات حبيبة ! ويالها من أوديسة ذات مفامرات خارقة !

ولا تبدأ هذه المفامرة بمولد (ترسترام) فالواقع أنه لا يولد حتى الجزء الثالث . ولكنها تبدأ ببدايات واقدار وواجبات وامتيازات جرثومة الجنين التى سيخلق منها الانسان فيما بعد . ثم تستحدثنا أشتات هذه القصة الى التعرف بوالتر شاندى ، الأب الشاذ الطبع لهذا الجنين الشاذ الطبع ، ووالتر شاندى رجل عظم حظه من النظريات ، وقل حظه من التجربة . وهو يحاول أبدا أن يعمل ما هو معقد لا ما هو يسير . وترتب على ذلك أنه كان عادة لا يفعل شيئا على الإطلاق . فاذا كان

غليه أن يدلك اذنه اليمنى حاول قطعاً أن يستخدم فى ذلك يده اليسرى عن طريق قفاه . وبذا تلتوى يده فى ألم ، وتظل أذنه بلا تدليك . وهو مسلح بحشد مذهل من النصوص الصوفية ، والعقائد السحرية . انه خطيب موهوب مأساته الكبرى عدم وجود السامعين . انه أشبه بساحر كادح أمام جمع من المكفوفين .

بل لقد كانت زوجته نفسها عمياء عن رؤية مواهبه . ولا تأبه لما يقول . فهى لاتوجه اليه أى سؤال وبذا لا تمنحه قط تلك الفرصة التى يشتهيها فى استماتة بالغة ، فرصة المناقشة . يقول ترسترام (وبرحت العالم آخر الأمر دون أن تعلم هل الأرض تدور أم انها ثابتة . وقد أخبرها أبى فى لاجاجة أكثر من ألف مرة حقيقة الأمر . ولكنها كانت تنسى دائماً) .

نلتقى الآن بشخص آخر فى بيت شاندى هو « توبى » أخو والتر . وكان العم توبى جندياً اعتزل الخدمة . وهو يقضى أيامه الأخيرة مع أسرة شاندى . وكان مليئاً بالطيبة خلوا من الفكر — فاذا تحدث أخوه فى المسائل الفلسفية ، ركن العم (توبى) الى تدخين غليونيه وصيد الدباب .

وهو لا يصيد الدباب الا ليطلق سراحه ، قال ذات يوم وقت العشاء للدبابة كبيرة كانت تثر حول أنفه ، وتقسو فى مضايقته طول وقت العشاء . . « اذهبى لن أصيبك بأذى » قال هذا وهو ينهض عن مقعده ويخترق الغرفة والدبابة فى يده . . « لن أمس شعرة من رأسك بسوء . فانطلقى » ويفتح النافذة ويفتح يده بينما هو يتكلم ليدعها تفر « اذهبى أيتها الشيطانة المسكينة . لماذا أؤذيك ؟ لا شك أن العالم يتسع لك ولى » .

وئان توبى شاندى خلو الروح ولكن (ولتلاحظ هنا
سحرية لوريس سترن) هذا المحب المرهف لخلق الله ،
هو ايضا كبير الاعجاب بتدمير الانسان وهو يقول امام
أخيه شاندى فى دفاع فصيح غيرذى موضوع عن اعجابه
بالحرب . (لقد كنت وانا تلميذ صغير ، لا يسعنى أن
أسمع قرع الطبول الا دق قلبى معها . فهل أنا مسئول
عن ذلك ؟ هل أنا الذى أوجدت هذا الميل ؟) وحين كنا
نقرا عن حصار طرواده الذى استمر عشر سنين وثمانية
أشهر - والذى ما كان ليلبث غير أسسوسع لو هوجمت
المدينة بالدافع كما هوجمنا فى نامور - ألم أضرب بالعصا ثلاث
ضربات ، اثنتين على يدي اليمنى وواحدة على اليسرى
لانى وصفت هيلين بأنها . ؟ هل ذرف احدكم أكثر مما
ذرفت من دمع جزعا لما أصاب هكتور ، وحين أتى الملك
بريان الى المعسكر يلتمس أن يتسام جثمانه وعاد بدونه
باكيا الى طرواده ، افتدري ما حدث . يا أخاه انى لم
استطع تناول العشاء .

انه يمقت رؤية القتلى ولكنه يحب رؤية القتل . او
بالأحرى هو يحب رؤية المهارة التى تتجلى فى عملية القتل
ولقد أمضى سنوات يدرس الفن العسكرى دراسة مركزة .
واعاد مع خادمه الجندى ترم تمثيل حملات دوق ملبرو
فى ايطاليا والفلاندر وكان فى كل يوم يحلل هذه الحملات
على الورق ، ثم يعيد تمثيلها من جديد على المنفسح
الأخضر المجاور لتل شاندى . فيستخدم غلايينه لتمثيل
الدافع ويبعث فيها دخانا كثيفا كأنه صورة هوجاء لأعمال
المدفعية . طلقة بطلقة وأمرأ بأمر . وانه ليضاعف من
انتصارات الدوق . وكلما احتل ملبرو موقعا ، احتل عمى
توبى موقعا أيضا . ما كان للعالم أن يتمخض عن منظر
أروع من . . ملاحظة الروح التى كان بها العم توبى ومن

ورائه ثرم ، يندفع مهاجما من داخل المدينة المحاصرة .
وفي يد احدهم سيفا نشره وفي يد الآخر فأس - ليقوما
بالمناورات الأخيرة . وما كان أعمقه من سرور يترقرق في
عينيه حين يقف على رأس الجندي . يقرأ له الفقرة عشر
مرات بينما هو يعمل ، مخافة أن يحفر حفرة تزيد أو
تقل مقدار بوصة . وأما بعد أن تحفر الحفرة ويساعد
الجندي عمى في الهجوم ويتبعه والأعلام في يديه ليرفعها
فوق أسوار الحصون . . . فما أعجب مايتولى عمى (توبى)
من نشوة النصر .

تلك هى الأسرة التى ولد فيها (ترسترام) قطعة من
الضلال وتقلب الأهواء فى عالم ضلت أهواؤه . وتمضى
أجزاء خمسة فى التجوال الجسدى والعقلى والروحى ،
تجوال فكه مجنون ، يقتادنا من غير مكان الى غير نهاية ثم
يعود بنا الى غير مكان . ويقدم لنا فى خلال الرحلة أبعد
ما نتوقعه من حماقات وانفعالات ومسررات فالكاتب يقتادنا
فى جنون على قدر ما يقتاده القلم وأنا لنلهث حين نتبع
تلك الحفلة التنكرية الجنونية من الأشخاص المقنعين وهم
يدورون فى دوامتها بلا عقل ولا نظام . وكل يجذب جاره
من قدمه أو رأسه أو سترته وسط صخب يضطرب أى
مضطرب .

فاذا انتهى كل شئ لقفنا أنفاسنا وقلنا فى عجب
» يا لها من مغامرة مجنونة ! لكن يا له من جنون مرح
طروب ! « .



وكان فى نية (لورنس سترن) أن يتابع الجنون فى عدد
من الأجزاء المتعاقبة لقصة (ترسترام شاندى) فقد رأى

فيما بعد أن ينزل بطله الى الأرض بعد أن تركه معلقا في الفضاء وفي تلك الأثناء زار لندن ووجد نفسه الفارس العلم في دنيا الأدب . . . فالناس جميعا يقدمون الولاء لذلك الشاعر الواعظ الطويل الهزيل من يوركشير ، الذي امتزجت فيه القساسة والبذاءة أتم الامتزاج . فدعاه « جاريك » و « لورد شسترفيلد » الى مأدتيهما . وكانت حجراته تزخر بجمع من أرفع الناس مكانة منذ الصباح حتى الليل . وكانت كل دعاباته تنتقل الى المشارب ، وتنتقل عن طريق الصحف الى العالم أجمع وأصبحت الشاندية فلسفة الهذر الجديدة ، صارت ديدن كل الرجال ومعظم النساء في هذا العصر الإباحي وقدمت كوامخ شاندى في المطامع وسميت خيل السباق في إيرلنده ترسترام شاندى ، كما أطلق اسم هذا الكتاب على الملابس وأدوات الزينة بل وألعاب الورق .

وذاقت شهرة الشاندية في الجانب الآخر من القناة . وكان الفرنسيون لعجزهم عن متابعة اللفة البعيدة عن المؤلف ، والفواصل العجيبة في الكتاب . كثيرا ما يقولون (ما أحقق هذا الفارس شاندى) .

وبعد أن نال أقصى ما تستطيعه لندن من ملق ، وبعد أن استعد لنشر الطبعة التالية من ترسترام . عزم على الإبحار لينعم بالدفع الحبيب في جنوب فرنسا ، لأنه كان يستطيع أن يسمع من خلال دمه الضعيف أصواتا أخرى تدعوه وتعد له لقاء غير مشرق . قال الأطباء الذين فحصوه (ياله من رجل لطيف . . ومن أسف أنه لن يتم الشتاء وهو على قيد الحياة) .

وسرعان ما سرى النبأ كأنه إحدى دعابات سترن (أنه ليملاً الفراش نرفا . ويستلقى فاقد النطق أياما بعد أن

يظهر على الملا فى اجتماع عام . ذلك هو تاريخى !) .

ويستأجر سفينة فى دوفر . والطريق وعر ، فيستلقى فى مقصورته . ان الرياح تكاد تأخذ بخناقه « لكن بالله لأعطين الموت فرصة مريحة لمطاردتى . سأقتاده الى رقصة لم يحلم بها لأنى سأجرى كالحصان دون أن أنظر لحظة الى الوراء ، سأجرى الى ضفاف الجارون . فاذا سمعته يقعقع فى أعقابى سأرعت الى جبل فرسوف . . ومن هناك الى يافا . . ومن يافا الى نهاية العالم . فاذا تبعنى الى هناك دعوت الله أن يكسر عنقه » .

ولكن الموت بالمرصاد ولن يخدع عن فريسته . وتزداد حالة لورنس سترن سوءا بالتدريج . ويدخل باريس ، كأنه « كيس من السلع الميتة مرسلة الى بلوتو وشركاه ، وقد قضيت معظم الطريق مستلقيا فى قاع العربة على وسادة ضخمة ، هدانى بعد نظرى الى شرائها قبل بدء الرحلة » .

ثم تحدث معجزة مباغطة فينهض عن وسادته ويقتحم عباب المجتمع ليداعب الحياة دعابة ختامية ، ولا تمضى أسابيع ستة على وصوله الى باريس ، حتى يكون قد رقص مع نصف الهاتها .

لقد حير الموت نفسه بعض الوقت . فقد شك فى عنوان فريسته فانصرف عن الباب وهو يقول فى اعتذار عن اقتحامه : « لاشك أن هناك خطأ فى الأمر » .

ويذهل الفرنسيون « ولكنه مدهل ذلك الفارس شاندى » . ويدعوه دوق أورليان أن يجلس فى جمعه من الرجال ذوى الأطوار الشاذة . وتختص احدى المضيفات نفسها به فى أيام الخميس ، فتدعو كل جائع وكل ظامئ أن يتناول وجبة اعجابا بعقله المتفتق ، ولا ينجو أحد من

المعيته الشبانية . فان أعجب الأفكار تجري في رأسه أبدا .

ويلقى قليلا من المواعظ في باريس من قلبه لا من رأسه ولكنه كان طول الوقت يكاد يغلبه الضحك على أمره . ويوشك أن يقذف بشعره المستعار في وجه السامعين ، كتب مرة يقول (انى أضحك حتى أبكى وأبكى حتى أضحك) .

ويحدث له هنا ما حدث له في لندن اذ غلبه جمال النساء على أمره . كتب فرنسي قوى الملاحظة يقول : هذا القسيس يعشق النساء جميعا ، وبدا يحتفظ بنقائه . فانه ليرتجف اذا مسته أطراف أنامل سيدة ، ويود لو ألبسها الحذاء ، ولو نام في الغرفة المجاورة لغرفتها في فندق (كلها أعمال بريئة اذا فهمتها على هذا الوجه) .

وهو بالغ الخرق في تصرفاته ، بالغ الشوق الى معرفة تصرفات الناس ومساخرهم فيسافر الى جنوب فرنسا على متن بغل بجانب تابعه الخاص الذي كساه سترة قرمزية ، ويطعم أثنائه كعكه بعد أن يمضغ نباتا شوكيا ، لكي يرقب التغير في تعبيرات وجه البغل . وهو يلقي العملة الصغيرة ويومئ ايماءة العظمة الى المتسولين اذ يتعلقون بحذائه الذي يبلغ ركبته . ويلوى عن الطريق أميالا لمجرد أن يدخل في نقاش ممتع مع رهبان كان قد لقيهم في طريقه ، ويدخل متجر قفازات ويمسك بمعصم البائعة فاذا عد رسفها عشرين نبضة دخل رجل فتقول هي (انه زوجي لا أكثر) ولذا يستمر ممسكا بمعصمها حتى يتم أربعين نبضة . وانه ليدعو حارس أحد المسارح أن يقذف بجندى المانى ضخم الجثة خارج مقعده لانه

رفض أن يحرك رأسه حتى يستطيع قزم يجلس خلفه أن يرى المسرح . (ألسنا جميعا أقزاما نحاول رؤية المسرح لنفقه معنى المسرحية ؟ .. ألسنا أشبه .. بدمعة فخر تذر ف خلصة بين كل دمتين من دموع الهوان ؟) .

ثم يعود الى سماع وقع أقدام . فان ذلك المحتسب الواسع الخطا الذى يروع الخاطيء يقترب فى سرعة . فيرجو سترن لو تم اللقاء فى نزل منعزل بعيدا عن قلق زوجه وابنته وصحابه . وكان يرجو أنه حين يدخل ساحة الحساب بناء على الاعلان الذى لابد أن يصل الى الجميع ، لا يبدو دفاعه بالغ القحة أمام المدعى العام الأكبر فهل كانت حياته تكاد تخلو من التدين ؟ نعم ولكنها تكاد تخلو أيضا من النفاق . وكان يضرع أبدا الى الأقدار (امنحني النعمة والحكمة والدين أن شئت ولكن فوق كل شيء دعيني أكن انسانا) انه لم يدع قط انه أى شيء آخر « فدعيني أكن مجرد انسان » .

ان ممثل الاتهام حين طار الى ساحة العدل السماوية وفى يده التهمة قد احمر وجهه خجلا حين سلمها . وأن الملاك المسجل حين كتبها ذرفت عينه عبرة سقطت على الكلمة فمحتها الى الأبد .

سير والتر سكوت

(١٧٧١ - ١٨٣٢)

- ١ -

في خريف عام ١٧٧٧ كانت السندة (كوكبرن) وهى ابنة عم لوالدة والتر سكوت تقضى المساء مع أسرة سكوت فكتبت فى الصباح الكتاب التالى الى اسقف الأبرشية .
«... كنت أتعشى فى الليلة الماضية مع أسرة سكوت ... ولهذه الأسرة طفل على أعجب حظ من العبقريّة . وكان يتلو على أمه حين دخلت ، فحملته على موأصلة القراءة وكانت القصيدة تصف سفينّة تتحطم فكانت انفعالاته تشتد كلما اشتدت العاصفة . فهو يرفع عينيه ويديه قائلاً « ها هو الشراع قد اختفى انتهى . سيموتون جميعاً » وبعد انفعاله يعود الى قائلاً « انها شيء محزن جداً فيحسن بى أن أتلو عليك شيئاً أمتع » وكنت أفضل أن تأخذ فى الحديث فسألته رأيه فى ملتن وفى كتب أخرى كان يقرأها فأبدى لى رأياً رائعاً فمن الملاحظات التى أبدأها قوله (من العجب العجائب أن يعرف آدم . . كل شيء مع أنه جاء العالم لتوه) .

ولما أخذ الى مخدعه فى تلك الليلة أخبر خالته أنه أحب هذه السيدة فسألته (أى سيدة) فقال (مسز كوكبرن) ، طبعاً ، ولعلها طلعة فى الفنون مثلى . فسألته خالته : وما الطلعة ؟ قال : ألا تعرفين . انها الشخص الذى يريد أن يعرف كل شيء .

كان للفنان الصغير عقل ضخم وجسم قوى ورجل عرجاء ، فلقد أصيب في شهره الثامن عشر بصدمة من شلل الأطفال فأصيبت إحدى ساقيه بالكساح مدى الحياة . وأما باقى أعضائه فظلت كما قال (سليمة مكتملة النشاط ، شديدة المراس ، فتعلم بها المشى والركوب بل والجري مع خير رفاقه) وكان كريم الأب والأم ، وكان كرم المحتد يدعوهُ الى الاعتزاز بالنفس لا الى التكبر والخيلاء ، فهو طوال حياته رفيق طيب بين رفاق طيبين . يقول أحد العمال بعد أعوام طويلة : « أن سير والتر ليتحدث الى كما يتحدث الى أقاربه الأدين » .

وكان منذ طفولته قلقا كآنة الأعصار ، فهو أبدا يفعل شيئا أو يقول شيئا . وكانت ذاكرته أشبه بورقة النشاف فهي تمتص كل ما يسمع أو يقرأ . وكان يعدو حول المنزل وهو يردد الشعر أو بعبارة أخرى يهتف بالشعر ويصيح . وكان يستحيل على أى انسان غيره أن يسمع له صوت فى حضرة والتر . ويقول عنه اسقف الأبرشية : أن المرء اذا تكلم فى حضرة هذا الطفل فانما يتكلم فى فوهة مدفع .

انه شيطان صغير مستقل الارادة ، نهم الى العلم ، التحق بالمدرسة فى الثامنة من عمره ، وقد كان يحفظ شكسبير . وهوميروس عن ظهر قلب ، لكنه لم يكن يعرف من الحساب شيئا ، فسلكه مدرسه بين الأغبياء فى مؤخرة التلاميذ .

وكان التلاميذ أول الامر يعيرونه بعرج قدمه « لا فائدة من أن تلاعب أعرج » لكنه دعاهم الى النزال المرة بعد

المرّة وكثيراً ما كان يصبر وأنفه تسيل منه الدماء . وأخيراً
كسب احترامهم .

وكسب أيضاً . أعجابهم لأنهم عرفوا قدرته على رواية
القصص « أي قصص ياجيمى ! » عن النجّاد والوهاد
والمناوشات الدامية بين أهل النجّاد وأهل الوهاد في
المنطقة الحرام عند الحدود .

لكنه وجد وقتاً للدراسة الحساب بين قراءاته وحربه
ورواية القصص . وما مضى عامان حتى بلغ الفرقة
الأولى . وما مضى عامان آخران حتى صار على أهبة
الالتحاق بالكلية .

لكن مرضاً خطيراً يعترض سبيله في المدرسة ويكاد
يقضى على حياته . فقد انفجر له وريد في الأمعاء فقضى
أسابيع في الألم ، وشهوراً في النقاهة ثم صار على أهبة
استئناف التعليم . فدخل الكلية ليعد نفسه لمهنة أبيه
.. القانون .

وكان والتر سكوت يفضل حياة الجندية على حياة
المحاماة . لكن حياة الحرب مستحيلة على صبي أعرج ،
لذا حصل على درجته من الكلية وقنع بنسخ الوثائق
القانونية بمكتب أبيه .

لكن عقله ما برح يطوف بالعالم وتتجاوب فيه الموسيقى
العسكرية ، وتطوع فعلاً بعض الوقت في فرقة من متطوعي
الفرسان وشارك في تمريناتها اليومية . ولكن عاهته
الجثمانية أدت إلى إخراجه منها . فعاد إلى مكتبه وإلى
مغامرات عقله .

أخذ يكتب الشعر « غيرة من ابن جلدتى الاسكتلندى
روبرت برنز » وحاول أبوه جهده ليشنيه عن هذه الطريق

« ان هذه الشطحات غير المجدية التى يشنها خيالك لن تؤدى بك الى شىء » ولكن أصر سكوت على سلوكه ، وكان عليه وهو يتدرب بمكتب أبيه أن يسافر الى النجاد ليحصل ايجارات لعملاء أبيه . وفى هذه الرحلات لقي ولتر كثيرا من الشخصيات الشائقة ، وسمع كثيرا من القصص الممتعة . وكان قد أوتى البراعة فى رواية القصص والروعة فى الانصات . ويقول أحد هؤلاء القوم فى النجاد « كنا لا نسمع عشر كلمات الا أخذنا فى الضحك أو الصخب أو الفناء » .

من حملات التحصيل الى النجساد هذه نبت شعر سكوت . . ونبتت فيما بعد قصص ويفرلى .

- ٣ -

وقد وقع فى غرام فتاة رفضت أن تتزوجه ، وتزوج من فتاة رفضت أن تحبه لكنها أعجبت به لتماسك خلفه ، ومرح قلبه وروعة عقله . فكان بينهما زواج ينطوى على مودة دائمة ، لكنها غير عارمة . فقد أحاطته بذلك الجو المعتدل الدفء الذى يلزم بالضبط لنماء عبقريته وترعرعها .

وكان هو نفسه يقول عن عبقريته « انها مجرد كفاية فى التعبير » .

وقد حبر على عجل بعض القصائد الاسكتلندية وعدة مترجمات عن الألمانية . لقد بلغ حينذاك عامة الثامن والعشرين ولكن لم يكن لديه أى أمل فى النجاح الأدبى . لقد وافق أباه الآن تمام الموافقة على أن شطحات الخيال

لا تؤتى أكلها ، فصار يكتب ليتسلى فى وقت فراغه من أعمال القانون .

لقد قرر أن يشتغل بالقانون فعين مأمورا لمقاطعة « سلكركشير » وهى وظيفة تدر عليه دخلا طيبا ولا تستغرق من وقته الا قليلا وتتيح مزيدا من الحرية لمزاولة عمله المنتظم بالمحاكم . وفسحة من الوقت لمزاولة هوايته الأدبية .

وقد ظل أعواما عدة يجمع أهازيج الحدود الاسكتلندية . وهو الآن يعقب على هذه المجموعة ويعدها للنشر ، وهو لا يفعل ذلك طلبا لمجد شخصى بل معونة لأحد أصدقائه القدامى بالمدرسة ، هو الطابع « جيمس بلانتين » وكان هذا الرجل فى أمس الحاجة الى عمل لمطبعتة يقيها التردى فى مهاوى الافلاس ، فقدم سكوت (أهازيج الحدود) الى بعض الناشرين واشترط عليه شرطا واحدا هو أن يطبعها بمطبعة بلانتين .

وهكذا احترف الأدب ليعين صديقا من أصدقائه .

ولم تنجح المجموعة نجاحا ماليا كبيرا . وكان عنوانها « أهازيج الحدود الاسكتلندية » ولم يكن سكوت يتوقع لها النجاح فهو يقول « ان اتجاهاتى الأدبية ادخل فى باب المتعة منها فى باب المنفعة » . كذلك لم يكن يتوقع النجاح المالى لقصيدته الأولى ، ذات الأصالة والابتكار وعنوانها « انشودة الشاعر الأخير » . ولكن نجحت هذه القصيدة . فدهش لذلك أعظم الدهشة . ان نجمه ليبدل دلالة حاسمة على أن حياته ستكون للأدب لا للقانون . ولكنه لا يدرك كفاءته الحققة حتى الآن وان بلغ عامه الرابع والثلاثين فهو يقول « أما عن ولعى بالأدب

فانى أضحي من أجله بفرص فى مهنتى ذهبية تفيض
على الثراء والجاه .

كان يصبو قبل كل شىء الى أن يكون فى ذيل أعلام
القانون الأسكتلنديين فخاب أمله أعظم الخيبة إذ صار
أول أعلام الأدب الاسكتلنديين ، وكان الاسكتلنديون
حينذاك يعاملونه على أساس تقويمه لقدر نفسه فهو كما
قال « يجد منزلا يأويه فى كل مزرعة » لا بوصفه شاعر
الشمال العظيم ، بل بوصفه « مأمور سـلـكـر كـشـير
الوديع » ولو أنك طلبت الى معاصريه تحليل مشاعرهم
نحوه لأجابوك ان الذى يحبونه هو والتر سكوت الاسان
.. لا المأمور .

كان غاية فى الظرف والبساطة ، صادرا عن سجية ،
زاخر الرأس بالنوادر والملح ، بريثا من التعالم والادعاء ،
قد وهب قلبه كله لأصدقائه ، وأن عيوبه كفضائله لتنطق
بانسانية واضحة ممتعة . كتب الى أحد قرائه يقول
« ستجدنى نصف محام مهوش العقل . وستجدنى
نصف صائد فان كوكبة من الخيل لاتزال تركض فى رأسى
مذ كنت فى الخامسة من عمرى ، وستجدنى نصف
متعلم ونصف مجنون ، وستجدنى نصفا فى كل شىء ،
ولكنك ستجدنى جميعا . وبكل جوارحى ، عارف فضلك
ومحبك الأمين ، خادمك بكليته .. بجوارحه جميعا »
هذه العبارة هى مفتاح النغم فى شخصية والتر سكوت .

— ٤ —

ولئن كان والتر سكوت أخا سخاء ، فقد كان أخا
حكمة أيضا . فانه ليحرص على كفالة الراحة لأسرته —

التي تتكون الآن من أربعة أطفال - فيوظف مدخراته في دار للطباعة هي دار صديقه (بلانتين) وهكذا شارك في مغامرة لعلها كانت تنجح لولا أمران : قصور بلانتين عن فهم الموقف التجارى ، وقصور سكوت عن فهم بلانتين . فظل المشروع أعواما طويلة يسير مترنحا ، وظل سكوت يزيد باستمرار مقدار ما يلقى في المشروع من دخله . انه لندفع أبدا الى مأساة قاصمة ، ولكن مضى وقت طويل قبل أن يعى سكوت هذه المأساة . وكان في هذه الأثناء معنيا بالمحامية التي تجلب اليه دخلا يسيرا ، متلهيّا بالشعر الذى يدر عليه دخلا وفيرا . فقد نظم «مارميون» و « سيدة البحيرة » ، وعدة قصائد صغيرة ، وكان يتلقى التمجيد الأدبى فى تهامل والضربات الأدبية بابتسام .

سمع مرة بتحقيق لقصيدته « سيدة البحيرة » فأنفجر ضاحكا طيب النفس . وكانت صاحبة هذا التحقيق ابنته (صوفيا) وهى صبية فى الثالثة عشرة من عمرها وكان جيمس بلانتين قد قابلها فى مكتبة سكوت بعد قليل من نشر (سيدة البحيرة) فسألها عن مدى حبها للقصيدة . فأجابت فى بساطة تامة كما ذكر لأبيها « أوه . . انى لم أقرأها ، وان أبى ليقول : ان أشد ما يؤذى الصغار قراءة فاسد الشعر » .

غير أن شعر سكوت الا يكن من رائع الشعر فهو بعيد من فاسده ، وان الفيصل فى هذا هو الذوق . فأنت لا تدرى طعم الفطيرة ما لم تطعمها ، ولا يلزم العلم فيمن طعمها لكى يتذوق جمالها . وهذا سكوت يجرى تجربة على فلاح أمى صديق ، لكنه رياضى ذكى متحمس فيتلو عليه المشهد الأول من (سيدة البحيرة) وهو مشهد (صيد الظبى) فيضع الفلاح يده على حبينه كما قال

سكوت ويصفى في انتباه عظيم طوال تلاوة صيد الظبي .. حتى يصل الى ان الكلاب اقلت بنفسها في البحيرة وراء صاحبها . فيقف وقد تملكه العجب بفتة ويضرب المنضدة بيده ويعلن في صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة ويعلن « أن الكلاب قد أصيبت بعطب تام اذ سمح لها بخوض الماء بعد مطاردة قاسية الى هذا الحد » .

ان للقصيدة مذاق الحياة يستوى في تلذذه الفلاح الأمي والقارئ المتعلم . وانا لنشعر حتى يومنا هذا ان سيدة البحيرة برغم ايقاعها الرتيب وملالتها بين الحين والحين قصيدة شهية حية .

نجحت (سيدة البحيرة) نجاحا فاق كل مأمول ودرت الشراء ليس على مؤلفها وحده بل وعلى كل خمار وكل حوذي وكل سائس خيل وكل تابع يقيم على مقربة من بحيرة كاترين . ذلك بأن الوفود من كل أجزاء بريطانيا بل ومن القارة (أخذت تحج الى مشهد القصيدة الذي أذاع صيته ساحر الشمال ، وازدحم كل منزل وحنانة بوفود الزائرين المتقاطرة فقد غدت بحيرة كاترين مثابة للزوار وصارت القصيدة كتابا مقدسا واسما يهتف به عند الوغى) . كانت مجموعة من الجند نحارب تحت امرأة (ولنجتن) في شبه الجزيرة فكان قائدهم يتلو عليهم في صوت مرتفع وصف المعركة في المقطوعة السادسة وكان الجند مستلقين على الأرض ينصتون الى الشعر الملهم بينما نيران مدفعية الأعداء تقصف فوق رؤوسهم وكان انتباههم صامتا مستغرقا الا حين يسمع منهم هتاف فرح كلما أصابت الشاطئ القريب الى ظهورهم قدائف الفرنسيين .

وظل عدد المبيع من نسخ القصيدة يتزايد من طبعة

الى طبعة وتمكن سكوت بفضل حقوق التأليف من أن يحقق حلم حياته كلها فأنشأ له في الريف مزرعة . فلما استقر في مزرعته على ضفاف نهر تويد فتح أبواب منزله وأبواب قلبه لـسـكـل من في الريف من الدوق الى الفلاح الأجير فاذا حذره صحابه من الأسراف في موداته أكد لهم أن كل زواره يؤدون حسابهم بطريقة أو بأخرى . فكل زائر مهما يكن مغمورا ، كان يحمل في برديه أنفس ما يهدى . . يحمل صديقا جديدا ! فقد كان يكتفى بعملة الصداقة ثمنا لبضاعة الكرم والبذل .

لقد شاب رأسه كـمـسـا كتب لأحد خاصته « لكنى لا أستطيع الشعور بأن مخي أو قلبي قد أصيبا بالبرد من أثر ثلج المشيب » والواقع أن تقدم السن لم يصب بالبرد مخه وقلبه بل لقد أتاح لهما الدفء فطار محلقا في آفاق من الخيال جديدة ، فبعد أن ظل حتى منتصف العمر يقرض الشعر حتى غدا شاعرا من الطبقة الثانية نراه ينتقل الى النثر فيفقدو شاعرا من الطبقة الأولى .

وكان في اعوامه الأولى قد حاول مرة أو مرتين أن يكتب قصة نثرية وما لبث أن كف عن المضي في محاولة شيء فوق قدرته فلقد عرض في سنة ١٨٠٥ سبع فصول من « وفرلي » على ناقد صديق يدعى « وليم أرسكين » فقال له صاحبه ينصحك في غير مجاملة (اضرب بهذه الفصول عرض الأفق فهذه الفصول تنطق بعجزك عن كتابة القصص) فلم يضرب سكوت بفصوله عرض الأفق . . ولكنه نحاه جانبا ثم وقع نظره عليها مصادفة في عام ١٨١٣ وهو يبحث عن أدوات الصيد في درج مكتبه . وأعاد قراءة فاتحة القصة وقرر أن يتمها «للمجرد المتعة» . وهكذا وجد (ولتر) أنه قد امتلك منجما من الذهب

ذون أن يعلم ،

ولكنه لم يكن قط على ثقة من قيمة القصة فنيا ، حتى بعد أن عرف قيمتها عمليا . فنشرها جميعا غفلا من الأمضاء . وقد فسر ذلك في أواخر حياته بأنه كان يظن كرامة الأمور لا تتيح له أن يصير كاتب قصص وكان يكتب قصصه مستخفيا كأنما هو يوغل في رذيلة سرية مخزية فاذا أتم القصص أرسلها تمرق كالسهم لتصيد له الثروة .

وأصابت سهامه النفيسة فرائس تعدلها نفاسة من الذهب والمجد . لكنه لم يكن مجدا شخصيا .

وكان يحدث من حين لحين أن يحددس ناقد فاحص أنه مؤلف القصص فما فرغت «ماريا أدجورث» من قراءة « وفرلى » حتى أرسلت كتابا لمؤلفها المجهول . . « أما سكوت أو الشيطان » ولكن سكوت لا يؤيد صلته بالكتاب ولا ينكرها . لقد جلس ذات مساء الى العشاء مع الوصى على عرش انجلترا فطلب الوصى كأسا طافحة يشربها في نخب مؤلف ويفرلى ونظر الى سكوت نظرة ذات مفزى فملا سكوت كوبه حتى طفحت وقال (يبدو على سموك الظن بأن لى حقا فى شرف هذا النخب ولست أستطيع ادعاء هذا الشرف ولكنى سأحرص عن ابلاغ « سيمون بيور » الحقيقى تلك التحية السامية التى وجهت اليه الآن) .

وظلت تواليفه تصب المال فى خزائنه انصباب الماء فى الشلال . وظل سكوت يصبها بدوره فى هوة ليست بذات قرار ، مؤسسة بلانتين للطباعة . ولم يك يدري طول المدة ان المؤسسة تسير من سيىء الى أسوأ فتوسع فى شراء الأرض وتورط فى شبكة من الرهونات وسلى جموع زائريه وأقام العشاء وحفلات الرقص لأهل الريف على

خُضرةٌ مزروعةً له وضرب في التلال والوديان برغم عرجه
وركب للصيد ليؤلف القصص . فكيف بالله اتسع وقته
لكل هذا ؟ وابتهج بما نال من تكريم بما في ذلك لقب بارون
وزوج ابناءه وكتب قصصا أخرى واصاب مالا جديدا
وأوغل في أعماق مشروع بلانتين المفجع ثم جاءت الصدمة
فقد أفلس بلانتين وضاعت ثروة سكوت كلها . وكانت
الصدمة مفاجئة كما كانت مفاجئة لكنها أحالت سكوت من
رفيق طيب إلى رجل عظيم . فهو منذ اليوم بطل لقصة
اغنى بالالهام من كل ما كتب . فقد بلغت ديونه نتيجة
لافلاس (بلانتين) ١١٧٠٠٠ جنيه فنصحته أصدقاؤه أن
يعلن إفلاسه .

ولطالما قدم هو نفس النصيحة لعملائه اذ هو محام .
ولكنه الآن يرفض في عناد واصرار ان يلتمس هذا الطريق
القانوني للفرار . وقال : لن يخسر أحد بسببي بنسا
واحدا . فاذا حاول افراد أسرته ان يشاطروه البأساء ،
أبعدهم عن الحجرة قائلا : انى أمقت احمرار الأعين
والأنوف . وأخذ يشتغل في صبر رواقى فهو يكتب
ويكتب ليؤدى كل ما عليه من دين . لقد أحال نفسه
آلة حية .

كان شابان (لوكهارت ومنريس) يتعشيان في منزل
منريس ذات مساء ، وعلى حين فجأة رأى لوكهارت
صديقه يحملق من النافذة قلعا .

فسأل لوكهارت : ما خطبك ؟ أتشعر بتعب ؟ .

فأجاب منريس : كلا سأكون بخير لتوى ، لو أنك
فقط سمحت لى بالجلوس حيث تجلس . . انى أرى من
هنا يدا مدثرة ولا زلت أرقبها منذ جلسنا . فهى تشوق
عينى . . فهى لا تقف عن الحركة أبدا ، وهى تحبر

صحيفة بعد صحيفة . ثم ترمى بها على ثومة من
المخطوطات ولا تزال اليد تتحرك دون كلل . ولسوف
تظل في حركتها حتى يؤتى بالشموع ، ويعلم الله كم
ستستمر بعد هذا . وهذا يحدث كل ليلة انهبها على
الأرجح يد ناسخ غبي خشن .

كلا انه ليس بالناسخ الخشن بل هو ولتر سكوت
يؤدي ما عليه من دين .

ويخر مريضا من الاجهاد ، ولكنه يقابل مرضه بروح
رواقية . فان مهمة الرجل الشجاع أن يألم ويعمل . فلما
عجز عن الجلوس صار يملأ المخطوط من فوق مضجعه ،
وكانت تمر لحظات يزم فيها أسنانه ألما ، ولكن لا تمضي
النوبة ، حتى يعود الى الاملاء .

وماتت زوجته فنحاه عنها ، ما أشق الوحدة . وعاد
الى عمله فكتب القصص والقصائد والتراجم . وها هو
ذا يسدد ربع ديونه ، ثم نصفها ثم ثلاثة أرباعها . ثم
يتحطم عقله من الاجهاد ، كما تحطم جسمه ، فقد وقع
في وهمه انه سدد ديونه جميعا ، فما أجمله من وهم .

ولقد كتب في ساعاته التي يعود فيها اليه عقله وصفا
لرجل مريض هو أحد أشخاص قصصه فجاء في الواقع
وصفا لنفسه «المقعد الوثير ملء بالوسائد ، الأطراف
الممددة مدثرة بالفائنة ، الجلباب الواسع ، وقبعة الليل
.. كل أولئك تنطق بالمرض لكل العين المظلمة التي كانت
يوما تتأرجح بالنار الحية ، والشفاه اللاغية التي كان
تمدها وتقلصها يسبغ روحا أي روح على محياه
الحى ، واللسان المتلعثم الذي كان يوما يفيض بالفصاحة
فيضا ، والذي طالما حمل من حديثهم من الحكماء على تعديل
آرائهم ، كل هذه الأعراض الحزينة أظهرت ان صاحبي

فى حالة الكآبة والحزن التى تعتري من بقيت لهم حياة
الحيوان بعد أن فقدوا ذكاء الانسان .

غير أن عقل سكوت ينهض فى الفترات التى تتخلل
آلامه . فيتم قصة أخرى (روبرت الباريسى) ثم يتأهب
للراحة . فالمحراث قد قارب نهاية الأخدود .

فبعث به أصدقاؤه الى رحلة بحرية فوق طرادة ،
قدمتها البحرية مشكورة ، وجاء فيمن جاءوا لتوديعه
لوردات وعقائل من على القوم ، ورجل من عامة الشعب،
كان أعجاب سكوت به فوق أعجابه بالجميع ذلك الرجل
هو : وليم ورد سورث .

وقد بدا على ظهر السفينة روايتين جديدتين . فهو
فى غسق النسيان كانت تواتيه بروق خواطف .

ثمّة شيء لا بد أن افعله قبل الموت ، ثم سنع بموت
جيتة ذات يوم ، فرجا الربان أن يوقف الرحلة ، فان
جيتة على الأقل قد مات فى وطنه . . فهيا بنا الى
أبوتسفورد .

بلغها فى ١١ يولية سنة ١٨٣٢ وكان لا يكاد يستطيع
المشى . لكنه رجأ أن يوضع فى كرسي أمام مكتبه ، قائلا :
اعطونى الآن قلمى ، واتركونى لحظة وحدى غير أن ابنته
حين وضعت القلم فى يده لم تستطع أنامله الانطباق عليه .

فنقلوه الى السرير ولبث به شهرين ثم أغلق عينيه
فى هدوء تام (لم يستطع مثال قط أن يصور شخصا
مستريحا أجل من هذا وأعظم) .

ولا عجب فى أن يبدو السلام عليه والطمانينة ، فقد
أدب دينه كاملا لدائنه فى السماء . .

أونورى دى بلزالك

(١٧٩٩ - ١٨٥٠)

- ١ -

كان فى طفولته يعزف على القيثارة ساعات متصلة ، وكان يحدث بها أصواتا غاية فى الإيلاام ، ولم يك يفهم علة لعدم شعور الناس بجمال موسيقاه . وكان فى المدرسة بدلا من الاقبال على الدرس يكتب مقالا عن « الارادة البشرية » ولم يدر لماذا مزقه المدرس فى ثوره .

وكانت عيناه المتسائلتان تبدوان قويتى النظرة ، حتى لقد حسب الناس أن الأحلام قد جرت عليه ذيل الفباء . ولكن أمه كانت من وقت لآخر تشده للعبارات العميقة التى تنطق بها شفتاه « أونورى . . محال أنك تفهم ماقلته اللحظة » ، كذلك قالت فى عجب لابنها الذى لم يتجاوز السابعة من عمره . وكان أونورى هو اسمه لأنه ولد يوم القديس أونورى فياله من تحد لطفلسل أن ينسب الى قديس ، بل وقديس من قديسى الشرف .

وكان أبوه كاتب تموين للجيش ، وكان يجمع فى نفسه كثيرا من « مونتانى ورايليه والعم توبى » وكان متفائلا دائما ، أورث ابنه مزرعة من الأحلام ولا شىء سواها . وپئس منه مدرسوهُ فى المدرسة الشانوية ، ونفضوا

أيديهم منه ، وتركوه لآفاق أحلامه « أن هذا الصبي
السمين يسير في حالة سسبات عقلى » كذلك كتبوا في
تقريرهم عنه . وخرج أونورى من المدرسة الى الشوارع
وأكثر من ارتياد المكتبات طلبا للأخيلة والحقائق ومرق
كالخيال الى السربون وأصفى دون أن يلحظه أحد الى
محاضرات الأعلام . لم يدر فكتور كوزان ولا جيزو الى أى
مدى وإلى أى بقساع سترحل كلماتهم فى التاريخ
والسياسة والفلسفة .

فدعته أمه وكانت امرأة فائقة الفطنة الى أن يعود
الى هذا العالم . وذكرت له أن من واجبسه دراسة
القانون . فالأب بلزأك ، وقسد بلغ الآن عامه الرابع
والسبعين ، قد أدرج اسمه بين المحالين الى المعاش .
وكانت الأسرة تجتاز ظروفًا ضنكا ، وقد أوقفه داعى
الواجب عن السير ذات يوم اثناء نزهته اليومية فى مقابر
لاشيز ، وهى بقعة كان يحبها ويفغدى فيها وحيه والهامه ،
ويصدر اليه فيها الوحي والالهام كأعمق ما يصدران وفيها
كان يزن أقوى آرائه ويبدأ فى خطته ذات الطموح الفذ .

فرجع الى بيته يعلن الأسرته أن « لست أبغى دراسة
القانون » بل أريد أن أكون أديبا . « اذهب الى سقرا »
وفكرت أمه وكانت لها عبقريتها الخاصة فى خطة لافاقة
أبتها من أحدث أحلامه . فأخبرته أن ليس بوسعه أن
يعمل فى المنزل لأن ضيق المسكن لا يتيح ذلك واستأجرت
له عليه تحت سطح منزل وأثنتها بأقل الضرورات وهى
انما تقدم هذه الهدية المزعجة ترجو أن تشفيه بها من
جنون طموحه . فيبارك أونورى هذه الهدية ، فاذا جلس
بين القدارة والهوام شسعر أنه يقتعد عرش أجداده
الروحيين . . ملوك القلم الجياع . نعم ولكن ما أمتع أن

يسلس لهواه العنان فينطلق فى أعظم أحلامه .

أتى لزيارته صديق فوصف الزيارة هكذا (دخلت عليه ضيقة تحت سطح منزل أثاثها كرسى لا قاعدة له ، ومائدة كسيحة ، وسرير بائس ، وستاران قذران قد اسدلا اسدالا نصفيا ، كانت على المائدة محبرة وكراسة كبيرة ملأى بكتابة عجلى وأبريق شراب الليمون ، وكوب وكسرة خبز ، وكانت حرارة ذلك الحجر البائس خائقة ، وكان المرء فيه يتنفس هواء موبوءاً) وكان بلزاك يجلس على سريره وعلى رأسه قبعة من القطن . « مرحباً بك يا صديقى فى ذلك المسكن الذى لم أبرحه غير مرة واحدة طوال الشهرين الأخيرين فأنا طول هذه الفترة لم أنهض من سريري الذى لا أبرحه وأنا أعد الأثر الأدبى الرائع » وكانت على النضد تمثيلية قد تمت لتوها هى (الأثر الأدبى الرائع) الذى من أجله كان المؤلف يحس النعيم وسط كل هذه القاذورات .

وأخذ بلزاك يوما هذا الأثر ليقرئه أسرته فلم يسمع استجابة استحسن وجاء به ثقة من ثقات المسرح فى الأكاديمية الفرنسية وقال له .

هل تفضل ياسيدى بقراءة ذلك المؤلف وترشدنى ماذا أفعل فى المستقبل . فقرأ السيد المخطوط وأجاب :

أفعل أى شئ فى المستقبل غير الكتابة الأدبية . فلم يزد أونورى عن هز كتفيه وهو يقول :

يخيل الى انى لا أحسن المأساة .

ولسكنه أقام على الكتابة فى عليته فهو قد عجز عن احزان العالم فقرر أن يمتعه . لقد فشل فى تأليف مأسى

ملهمة فليجد في الكتابة ليصيب رزقا فحسب . فكتب قصصا مثيرة للمجسلات الخفيفة . ان رأسه لمحتشد بالخطط . . لكن قلبه وجيبه خاويان .

كتب الى اخته يقول « انى جوعان يالور هل تتحقق الرغبتان الكبيرتان اللتان أصبو الى تحقيقهما وهما ان اكون شهيرا وأن اكون محبوبا ؟ » .

فانطلق يعمل فى اندفاع متوهج ويصوغ القصص على غرار ثابت فهو يكتب ستين صفحة كل يوم . وما هى الا ثلاث سنوات حتى اكمل واحدا وثلاثين كتابا من كتب المفامرات نشرها بأسماء مستعارة ، ولكن اسمه ظل غير مشهور ولا حبيب . وكان دائما يتقاضى حقوق التأليف صكوكا مؤجلة الدفع . وكانت ديونه أيضا وعودا مؤجلة السداد . فهو على نحو ما عاجز تماما عن ان يسيطر على الحاضر . ولما استمرت ديونه متفوقة على دخله أبدا ، شعر ان عليه اتمام قصصه الحالية أسرع فأسرع .

ولكن وضح أخيرا للحالم ان عليه ان يجد عملا آخر ، لأن الأحلام الممتعة انما توافى الأحشاء المليئة المدثرة فى دافئ الثياب . كان بحاجة الى دخل آخر غير الكتابة فأراد ان يصيب مرتبا أسبوعيا . لكن كيف ؟ نعم ان لديه رأسا مليئا بالخطط ، وهو يستطيع الشروع فى خطط باللسان تفتن الباب الناس . من هذه الخطط ان يجعل من نفسه ناشرا .

كان يتحدث عما يعتزمه من مفامرات بايماءات شديدة العنف ، وحماسة بالغة الشفف ، حتى لقد اشترى له احد الأثرياء دارا من دور النشر ، واندثرت الدار كأنها فقاعة من فقاعات الصابون . لكن الممول الذى خسر سبعين ألفا من الفرنكات فى هذه الصفقة كان لا يزال

مسحورا بفصاحة بلزак وذلاقتة ، وقدم بلزак الى أخيه
وكان غنيا أيضا فأحال الناشر طابعا .

وأصاب مشروع الطباعة ما أصاب مشروع النشر من
انهيار ، بفضل توجيه بلزак . فقد أغرى أصدقاءه بأن
يشتروا له مسبكا للحروف . وسرعان ما قاده الى الدمار ،
وأقبل عليه أقرباؤه يقدمون له من المال ما يكفي لانقاذه .
من الافلاس وانقاذ أسرته من العار .

وأنشأ جريدة ذهبت بددا مع أحلامه . ثم عاد الى
الكتابة يفقهه مرحا . كلا انه في الواقع لا يحمل ضفنا
لأحد ، والحق انه سوء حظه وخيانة معاونيه - كما
شعر مقتنعا - هو ما أسقطه ، فالمؤكد انه لم يكن قط
خاطئا في أى شيء . لكن لماذا يهم نفسه بهذه المسائل ؟
انه ليبلغ بأحلامه أقصى السعادة . أهو مدين بمائة ألف
فرنك قبل أن يبلغ الثلاثين ؟ فليزين حجراته بشيت أزرق
فان اللون يزدهيه . ويكتب الى أخته ، وكان عسيرا عليه
أن يجد رسوم البريد « آه يالورا لو أنك فقط تعلمين
كم أتحرق شوقا الى (لكن صه ! احفظى السر) ستارتين
زرقاوين موشاتين باللون الأسود (صمتا دائما) ومهما
يبلغ منه العذاب والارهاق فانه لا يستطيع أن يخلص
ذهنه من الستارتين » .

كان يتمم في نومه « الستارتان دائما » انها فكرة
ثابتة متأصلة ، ماذا يهم أن تخلو معدته من الخبز ؟ أن
لديه شيئا أهم منه بكثير ، ففي روحه الجمال ، وانه في
وقت العشاء ليمسك بقطعة من الطباشير ويرسم على
نضده دائرة تمثل طبقا ثم يكتب داخل هذا الطبق اسم
طعامه .

وذلك كان يصوم ويلوك ويردرد أغرب الأطعمة التي استطاع عقله أن يحيل رموزها الى حقائق . وان اللعاب ليوافي فمه ودموع السعادة لتثب الى عينيه . لكن هناك لحظات كان اليأس فيها يمسك بتلابيب قلبه . في هذه اللحظات لم ينقذه من الانتحار غير حب امرأة وذكائها ، كانت تريد عليه كثيرا في السن . لقد أقبل عليها في لحظة من أحلك لحظاته « لا تعزبني لا فائدة من العزاء . . . ! انى لمنتحر » وما هي الا كلمة ترفيه وتعجب حتى قال « يا لله انك لعلى حق ! ان عبقريتي ستكفل لى الحياة » .

وفي تلك الاثناء كانت عناية الله تهدبه وترأمه . وكان يسير في طريق التوفيق فهو على الرغم من كل ما يعتور حياته من اضطراب وتشويش سيصل الى مأربه . وان الكمية السخيفة من قصصه لتصوغ عقله على نحو خاص . فهو في ألمه وديونه التي تخزه وخز أطراف السنان ، يحصل على علم عميق بالعالم ورحمة كبرى بالألم والعداب ، فقد تمخض طموحه الدفاق وكفاحه المستعر ، عن الهام الفنان ، حلم قصير قصر الحياة والموت ، عميق كالهواية ، عظيم كاصطخاب البحر . . دعاء الى العمل ، والأفران كلها موقدة ونشوة التفكير تخفى ما يستقبل من متاعب . ذلك هو وحى الفنان الذى هو أداة متواضعة في يد ارادة تبدو أوفر الأشياء نصيبا من الحرية ، وان كانت في الواقع لا نصيب لها من الحرية على الإطلاق .

- ٢ -

هذه روايات وقصص أصدرتها المطبعة باسمه الحقيقي الآن ، قصص عن الطبقة الوسطى الناهضة من أصحاب

المتاجر والصيرفيين والنشالين ، وعن الحضارة التي تعبد المال وتسير بالبخار . وضحك بلزك ملء شذقيه مرحا من تلك الضجة التي أحدثها « لدى أنباء طيبة أخبرك بها يا أختي الصغيرة . لقد زاد ما يدفعه المحررون لى عن مقالاتى ويخبرنى (وردت) أن « طبيب الريف » قد نفتت نسخة فى ثمانية أيام . ها ها ! بذلك أستطيع أن أبرز لسد الديون المستحقة فى نوفمبر وديسمبر تلك الديون التى تزعجك وثمة ملايين كثيرة ستدرها على (أوجينى جراندى) « وجعل يحلم بنفسه جالسا فى المعهد، وفى مجلس الأعيان ، وفى الوزارة و « لم لا يوجه المؤلفون والحالمون دفعة الحكومة ؟ وهل أحق بحكم الناس ممن جابوا آفاق الفكر ؟ بوى أن أرى ذلك الشخص الذى يدهش إذا عينت وزيرا » .

ثم يطل فى دفتر صكوكة ، فيخبو الضوء الوردى من أحلامه . وكأنه كلما كتب زادت ديونه ، وهذا تحد هائل لقوانين المنطق . فجعل يدرع الحجرات التى أثشا حين بدت أول بارقة تشير بالتوفيق . وعمرها بكتب رائعة ومقاعد أثرية منقوشة . وأجمل آثار الفن وآنية من خزف السكسونيا ، وأنسجة صينية موشاه بالصور . ويعود منها إلى عمله ، يكد وسط المباشج من أجل الكونتيسة ب .

ويكتب عن أعظم المحتالين وأفجر الفجرة ويطلق روائح المجتمع العفنة ثائرة وكأنما قد أطلق الرياح من حقيبة ايلوس . وكان يجلس ويعمل فى عطف أبيض كأنه راهب من رهبان الدمنيك ، ويلبس حذاء من الجلد الأملس الأحمر الموشى بالذهب . ويلف حول جسمه البدين سلسلة ذهبية من طراز الهندقية ، يتدلى منها أداة مذهبة لطي الأوراق ،

وسكين ذهبى ، ومقص مذهب . وهو يشرب جرعات
عديدة من القهوة التى تفلّى ليظل يقظا . وكانت الكتابة
طقسا جليلا كأنه القداس .

كانت الكتابة تبدأ فى الساعة الثانية صباحا حين
يستيقظ الكاهن الأعظم من مضجعه ويتناول قلمه .

وفى ضوء شموع أربع يتأمل البداة غير المقدسة التى
تطفح بها مآدب باريس من ضحايا الحب والفضيحة .
وفى السادسة صباحا يستحم ويشرب عدة أقذاح من
القهوة . ثم يصحح تجارب الطبع . ومنسذ التاسعة
صباحا حتى الظهر يهرع الصبية عائدتين من المطبعة الى
المؤلف محاولين حل طلاسم الصفحات التى كتبت على
عجل والصلبان والنجوم والأسهم المتجهة صوب الألفاظ
الجديدة ، حتى بدت صفحات التجارب كأنها كتاب سرى
لمنجم فى القرون الوسطى .

كد من أجل الترف ، وعين الى الجمال رائية صافية .
بحيث لا ترى الاضواء والظلال فى النساء ذوات الاثر فى
سعادته . فهو ان يكن فى تواليفه أستاذا فى تاريخ
القلب ، فانه غر ساذج لا يفهم أبسط النساء فى حياته .
انهن ترف كثيف يخدعه لونه ، ولا يسمح لعقله بالنظر
من خلاله . فهو يولع ولعا جنونيا بماركيزة « كنت ذات
مساء كل شيء لها حتى اذا كان النهار كنت لا شيء .. »
ففى خلال الليل ماتت تلك المرأة . . التى أحبها .

ثم كانت سيدة أجنبية تقيم بعيدا عن المجتمع فى
قصر ببولندة . ولم يكن لديها شيء تفعله فكتبت اليه
خطابات غرام فى روح متصوفة . وقابلها سرا فى سويسرا
وتبادلوا القبلات تحت سماع زوجها وبصره ، وأنفق

ثماني عشرة سنة من أمله وقوته وحياته على الكونتيسة وراء الفستولا التي لا تبادله الغرام .

« العمل والعمل دائما » . ليال حامية تليها ليال حامية . أيام تفكير في اثر أيام تفكير . وتنقل من التنفيذ الى الخيال ومن الخيال الى التنفيذ . فان شراء قصر ومعيشة البدخ لأمر نبلغ في يسرها تأليف قصة . لن احيا حياة الأوساط بينا افكر تفكير الآلهة : ها ها ! هذا هرم صغير من المال ، قوام الحياة . وما هي الا أسابيع قليلة حتى ذاب الهرم .

فاذا بلغ عامه الأربعين كانت ديونه قد بلغت مائة وسبعين ألفا من الفرنكات وانه لرقم سريع القفز بلغت أرباحه وحدها ستة آلاف من الفرنكات في العام .

وانه ليأمل العصا الذهبية في يده ، ويتنقل في عربة مكشوفة ذات دولابين ، يجبرها حصان يخطر في خطا عالية ، وقد جثم الى جانبه نمر صغير أليف . ويؤلف . رواية في ثلاثة أيام ، ويتم أخرى في ستة أسابيع لم ينم خلالها غير ثمانين ساعة ، بمعدل ساعتين في اليوم . ثم تعتوره في حديقة خليلته تلك الرشيقة نوبة ارهاق تخور معها قواه .

فلما قصرت قصصه عن أن تغل المال الكافي ، ولى وجهة شطر المسرح فألف مسرحية في ستة عشر يوما كان مصيرها الرفض . ثم أودع فكرتها مسرحية أخرى فقبلت الفكرة . فما أسرع ما أرسل يستدعى جوتير وصاح نافذ الصبر حين وافاه جوتير (ها قد جئت آخر الأمر أيها المكسال المترهل ؟ كان يجب أن تكون هنا منذ ساعة . غدا سأقرأ لها ريل مسرحية عظيمة من خمسة فصول) .

« أتريد أن تقرئنى المسرحية وتسمع رأيى ؟ » هكذا قال جوتير وقد اتخذ له مقعدا وتأهب لسماع قراءة طويلة . فقال بلزاك فى بساطة « ان المسرحية لم تكتب » . « يا الله ! اذن يجب ارجاء قراءتها أمام المخرج ستة اسابيع » .

« كلا يجب أن نسرع فى كتابة المسرحية والحصول على المال . فان على ديننا فادحا يجب أدائه . انصت الى ياتيو . هكذا دبرت امرى . ستكتب انت الفصل الأول . وسيكتب أورلياك الفصل الثانى ويكتب لورنت الفصل الثالث ويكتب الرابع دى بالوى وأكتب أنا الخامس . ثم أقرأ أنا المسرحية كلها لهاريل غدا الساعة الثانية عشرة كما اتفقنا » قال جوتير « اذن فاذكر موضوعها وأشرح لى أحابيلها وصور شخصوها فى بضع كلمات حتى أستطيع أن أشرع فى العمل » .

فصاح بلزاك فى ايماءة رائعة « آه . ان كان على أن أروى موضوعها لك فلن ننتهى » .

ومع ذلك فان المسرحية قد كتبت . ويصفه لنا أحد أصدقائه فى أثناء تجربة (تمثيل الرواية) وصفا حيا « كنت تكاد تنكره من الضنى والاعياء . وأصبح قلقه وتشويشه أمرا يعسرفه الناس جميعا . فكان الناس ينتظرون أمام باب المسرح ويشهدونه يندفع فى الشارع وقد انتعل حذاء ضخما يخرج لسانه من السروال ولا يستكن فيه . وكانت جميع الملابس التى يرتديها تبلغ ضعف الحجم الذى يلائمه ، ويفشاه الطين من الشوارع » .

وكتب قبيل تمثيل المسرحية « لقد قاسيت شقاوات

كثيرة ، ولكن شقوتى كلها تنتهى اذا اصبحت النجاح .
تصور قلقى وتوجسى يوم تمثل مسرحيتى فوتران لن
تمضى خمس ساعات حتى يتقرر هل أستطيع أداء ديونى
ام لا أستطيع » .

ولم تنجح المسرحية . فقد صمم وغد القصة على أن
يمثل دوره هازلا متفكها ، فهو اذا خلع قبعته بان منه
شعر مستعار على شكل هرمى . وهو كساء للرأس لا حق
فى استعماله لغير الملك لويس فيليب ، ففساد دوق
أورليانس مكانه . وبرح المسرح وكان من العسير اتمام
الرواية ازاء ما حدث من الضجة وما سمع من صفير
الاستهزاء وما تردد من تهديد الجمهور وتوعده ، وما
أسرع ما حظر الرقيب الرسمى تمثيل هذه الرواية .

ولكن بلزاك كان مطمئنا جهد الاطمئنان فى اثناء حفلة
الافتتاح تلك . فانه لفى سبات عميق على اريكة عند
آخر المسرح وقد اشتمل عليه حلم جديد .

- ٣ -

حلم جديد آخر وانهيار مالى جديد . فيهرب من
دائنيه متنكرا فى ملابس امرأة وقد أستخفى بأفانين
التزين ، وجعل يتنقل فى سرعة بين حجرات الأسطح
ومزارع الريف حسبما شاءت الريح ، وجعل يتسلل
الى منازل أصدقائه ويتحدث فى الأخلاق والأدب والحب
فيما بين الخامسة مساء والخامسة صباحا مع « جورج
ساند » تلك النابغة الأخرى من نوابغ القرن . ثم يظهر
له كتاب جديد وتتراكم عليه ديون جديدة .

فيدعو ناشريه بالعقبان التى تنهش لحوم برمسيوس

ويكتب اليهم قائلا: «سيحل يوم قريب تنالون فيه الشراء على يدي ، سستذرع عرباتنا غابة باريس وسينفجر أعداؤكم وأعدائي حسدا » . صديقكم : ا . ب .

وتلى ذلك حاشية بخط بالغ الدقة « وبهذه المناسبة يا صديقي . انه لم يبق لدى مال ، لذا اقترضت مبلغ ١٥٠٠ فرنك من روتشيلد وكتبت بذلك المبلغ صكا باسمك ، يستحق الأداء بعد عشرة ايام من رؤيته » .

ولكنه ظل مقيما على الأمل في أن مشروعا تجاريا سوف ينهض به على قدميه ، وسوف يسعه أن يحلم وهو على رفرف النعيم . وكان قد عرف من مطالعته أن الرومان الأقدمين قد استخرجوا الفضة من مناجم لها في سردينيا ، وكان على يقين من أن هذه المناجم لا تزال بها فضة يمكن استخراجها . وحدث بهذه الفكرة أحد التجار وعقد معه شركة . وقرأ في الصحف ذات صباح أن شريكه قد تعاون مع بعض الوكالات الحكومية على استغلال مناجم سردينيا دون مشاركة بلزاك . ولكنه يقيم على حلمه المتفائل ، ويوقظ صديقيه جوتير وساندو ، في ساعة متأخرة من الليل ، ويخبرهما أن صوتا وافاه وهو في غيبوبته وأن ذلك الصوت قد حدد له المكان الذي خبأ فيه Jousaint L'ouverture كنزا ، وظلت الفكرة لسوء الحظ — لا تعدو مجالها النظري ، فان أحدا من الكتاب الأفاقين لم يتهيا له من المال ما يذهب به الى هايتي .

ولكن يمضي بلزاك في خطته ، فيعقد شركة مع صهره . ويبتكر نظام السطوح المائلة للسكة الحديدية ، ويحلم بإنشاء ترع من نانت الى أوليانز . وينقل شجر البلوط من بولندا الى فرنسا ، وبزراعة قدان من أرض

المدينة أثاناسا . ليته فقط يحصل على بضعة آلاف من
الفرنكات يبدأ بها مشروعه . ويجمع أقوال نابليون
ويبيعها بأربعة آلاف فرنك لبائع قبعات ، حسب أنها
قد تعينه على نيل نوط الشرف ، ثم قرر الحصول على
احتكار لصناعة تماثيل أوروبا وانسججة أوروبا الموشاة
بالصور ونقوشها لبيعها للعالم . فسوف يشتري مثلا :
(أبولو بلقدير) ويدع أمم الأرض قاطبة تتنافس على
شراؤه . ألا ليت له فقط منزل ريفي صغير ! .

و ذات يوم يمتلك منزلا . ولكنه يخشى تكاثر دائنيه
إذا سمعوا بما أصاب من ثراء . فهو يقول لكل زواره
(انى لا أملك من ذلك شيئا كما تفهمون ، فهذا منزل
أصدقائى وأنا أخدمهم) .

« من أولئك القوم العجيبون الذين يقطنون هنا وقد
اتخذوا أونورى دى بلزاك خادما لهم » ان حجرات
المنزل تكاد تخلو من الأثاث وان جدرانها المطلية بالجبس
الناعم لتحمل على أبعاد منتظمة أروع الأوصاف (لأشياء
غير موجودة) قد أثبتت على عجل بخط يعرفون صاحبه
حق المعرفة : « هنا رخام بارى مطعم » « وهنا لوح
مقاطع لفتحة الموقد من رخام كارارا » وعلى السقف
« هنا نقش الأوجين دلاكروا » وعلى الأرض « هنا أعجب
ما أبدعت يد انسان من طلاء بالألوان المائية والفسيفساء » .

ويحمل بلزاك فى يده عصا ذهبية وعليها الشعار التالى
مترجما من التركية (قاهر الصعاب جميعا) .

وتفد اليه رسالات بالغة العجب وتستحوذ على ذهنه
فكرة أنه مغنطيس فيعتقد أن شأنه كشأن القطب المغنط
ويعلن أنه اذا حصل على سر معين استطاع أن يأمر كل

انسان بطاعته وكل امرأة بحبه .

كذلك جعل يحلم بألف رواية هزلية وينفذ الى النزعات البشرية وينسج بساطه الوهمى من الأرض الى السماء على قوس قزحى عربى الطراز . فهو ان كان من قوم يكدهون فى النهار فانه ينظر الى نفسه على أنه عضو فى الطبقة الوحيدة النبيلة حقاً . . فهو أخ فى الملك لهارون الرشيد أمير من أبدعوا نسيج القصص وامتعوا الناس .

واى زخر من الجمال ذلك الذى يطالعك فى نسيج قصصه . انه لا يخشى ان يتهم بالمبالغة . حتى ليقول ان الرذيلة ان هى الا الرغبة فى معرفة كل شىء . وهو يربط مصيره بمصير فوست . فلقد برىء من كل خداع حق فى أمر العالم . فهو فى اقصى خيالاته سيموت كما تموت الحشرة المزخرفة قد أخذت زينتها لموسم الحب . ولم تلبث ان سحقته قدم عابر سبيل . فتساءل أنت فيم اللهفة هذه كلها على البهرج الباطل اذن ؟ بربك ليس هو البهرج مايعنيننا وان بلزاك ليناجى روحه وقل من ملايين الأصدقاء من سمع نجواه « ليست بى من الفقر خشية ولولا أن العار وزراية الناس تصبان على المتسول لتسولت واستجديت الناس لأستطيع أن أحل فى سلام تلك المشاكل التى يزخر بهسا عقلى . وانى فى بعض الأوقات لأقبض بيدى على عالم الفكر وأعجنه وأشكله وأنفذ من خلاله وأعيه . . ولكن المرء الذى يسبق زمانه بقرنين يختم حياته على المشنقة . . من أجل ذلك احتفظ بحسداً ثقى ومشروعاتى المالية لأنيم وأخدع تلك الروح الشريرة التى قد تنصب المشنقة لرجل ممزق الثياب . . بربك . . لأصبحن بالحق فى سسكونى . فليقم الملائكة مصحات للأرواح المعسدة . ولكن حتى يفعلوا سأشيد

للأرواح المعذبة قصراً من الأحلام .

- ٤ -

وأتت خياله فكرة هائلة حينما كان شاباً حاملاً قد
سلخ من حياته الشاذة الأطوار ثلاثين عاماً ، هي أن يؤلف
سلسلة من القصص ، تكون في مجموعها مسلاة إنسانية
كاملة من نوع ملهاة النماذج الاجتماعية . فهرع الى منزل
أخته كما كان يفعل دائماً اذا اشتمل عليه حكم كبير .
وأقبل كأنما هو كبير الزامرين في الجيش . فهو يحكى
الموسيقى العسكرية اذا هدرت وضربات الطبول اذا
قرعت . ثم هو يصيح (يا صغيرتى هنيئنى) .

وجعل يختف الى عمله يهمهم بالنغم . ويربت على
اكتاف الأصدقاء . فهو يؤدي دور المهرج السعيد بينا
فكرة مفامرته الشاعرية تكتمل نضجاً . ومهما تختلف
عليه البهجة والضيق ، والأبهة والافلاس . ومهما يبلغ
اضطراب أمره فى المسائل العملية فهو لا يحيد عن مهمته
طيلة عشرين عاماً .

لقد ألف غيره من القصاصين كتاباً أو كتابين أو عشرة ،
هى نتاج موقوف لفنهم حين يستوى للفن مزاجهم ، لكن
أى القاصين قد حلم بكتابة ستة وتسعين كتاباً كل منها
خط يشارك فى اتمام صورة سلسلة متتابعة للحياة .
انهى المهزلة البشرية للأرض .. وصيفة المهزلة الالهية
للسماء التى كتبها دانتي .

ولكن ما كتبه بلزاك كان أكثر من كتابة « معارضة »
للمحمة دانتي . فهو فنان يحيا فى بيئة يسودها العلم
الحديث ولا يحكمها ايمان القرون الوسطى . فدبر أمره

على أن يدرس مملكة الانسان كمسا درس بوفون مملكة
الحيوان . فيكتب بحثا شاملا في التشريع الخلقى المقارن
للجنس البشرى ، ولم لا يفعل وقد صنفت الحيوانات
اصنافا . ورتبت في اجناس وانواع ، وما الجنسود
والعمال والأساتذة والساسة والتجار والبحارة والشعراء
والمتسولون والقساوسة الا نماذج يتميز بعضها من بعض
تميز اللثاب والأسود والنسور والقربان والقروش بعضها
من بعض . فالانسان تحكمه النوازع ذاتها التي تحكم
الحيوان ، وعلى الأخص دافع المصلحة الشخصية .
والادب انما يجمل الانسان ، والنفاق يزوره فالحيوان
باق في الانسان وانما يختلفان في أن عقل الانسان أرحب
من عقل الحيوان ، لذا كبرت حاجاته وعظمت مخاطره .

وهكذا أقام في متحف التاريخ الطبيعي البشرى
صوره للبشر كاملة ، تنتظم آماله ورغائبه ومطامحه وكفاحه
ومنافساته وفراجه وضعفه وملقه ومخاوفه ، هي صورة
شاملة لوحشية الانسان كلها في حكم نابليون الأول ولويس
فيليب . وكان بلزاك شديدا الإعجاب بالكورسيكى
الضئيل . وكثيرا ما طاب له أن يقارن نفسه بنابليون فذلك
الرجل جندى يناضل بالسيف وأنا جندى أناضل
بالقلم . « ولكنى سأنجح حيث فشل نابليون . فلسوف
أغزو العالم » .

وغزت (المسلاة الانسانية) العالم فعلا . فهي تقدم
عالما جديدا يشتمل على طبقة جديدة . . هي الطبقة
الوسطى . انهم رجال جدد لهم مهام جديدة . وآمال
جديدة ودين جديد ، دين الديمقراطية الذى يؤمن بالرجل
العادى ، فالكادح فى المنجم وقد اتخذ على وجهه
قناعا ، والعاملي وقد ارتدى سرواله الثقيل والتاجر وقد

وقف وراء خزائنه ، هم أبطال الأدب الجديد ، والطبقة الجديدة ، والحياة الجديدة . لقد كتب اسكس وشكسبير وكورنى تمثيلات تدور حول النبلاء والملوك ، فيعلن بلزاك تحديه لقراء هذه القصص بقوله « ان قصصى البرجوازية لتحمل من الاسى ما لا تحمله مآسىكم التمثيلية » .

وبلزاك كشكسبير يفتن فى تلوين كل طائفة من طوائف الخلق البشرى ، فلا يألوها اضاءة ولا تظليلا ، وهو كشكسبير فى مناعته على العسودى بالأمراض العقلية والاسفاف الخلقى الذى شاء أن يتناوله . فهو يصور تحلل النبلاء وانهيارهم وظهور الطبقة الوسطى التى تنتظم الصيرفى وطالب الكسب والعصامى ، وجاءت قصصه ملحمة للشهوة المادية يسودها ظمأ غلاب الى النجاح المادى . كتبها أمير شعراء النزعة الرأسمالية . فالمال هو المقياس الوحيد لقيمة البشر . فهو دم الحياة يجرى فى عروق أشخاصه ، فيمد الرئتين بالهواء ، ويمد العقل بالغذاء ، ويمد القلب بالايمان . ان رنين الذهب هو موسيقاهم وشعرهم وفلسفتهم ودينهم وحياتهم وهو المادة التى تصاغ منها أحلامهم . وتحت طلسمه السحرى يبدعون الجمال ويقتربون الجرائم (وفى سوق الأوراق المالية تدور معارك البطولة وتجري الخيانات الفاضحة . ان المال ليتكاثر والنقود تجذب النقود ، وقطعة الفرنكات الخمسة تحسد الفرنكات العشرة وتكافح فى سبيل التكاثر . ان المال هو قررة الكون التى تحكم الأرض . هو بروسبرو وكاليبان . هو الله والشيطان اللذين يتأرجح بينهما العالم) .

ويتنقل بلزاك مزهوا بين حجرات الزائرين وقاعات التجارة ، ويهتك حجب النفاق التى تقف دون شخصه ،

ويظهر على أرواحهم ، ولكنّه يزدرى أن يصدر عليهم حكمه إذ كيف يحكم ؟ ان الانسان ليصف الأشياء جميعا أوصافا مجردة - طيب شرير فاضل مرذول - وهى الفاظ يختلف مدلولها باختلاف الناس ، فأحكام الناس عمياء . « وليس من مبصر فى حكمه غير الله » وما شأن أرضنا هذه الحمقاء ؟ أهى جزء من كون أحق ؟ يجيب بلزاك عن هذا السؤال سلبا .

ان الكون ليسير نحو غاية منطقية . وليست هذه الغاية مجتمعا على شاكلة مجتمعنا . فان الهوة بيننا وبين السماء سحيقة مخيفة ، وليس الانسان مخلوقا كاملا والا لما كان الله . ومع ذلك فمن كل هذا ، من شكل مجتمعنا ، ذلك المجتمع الذى يعد حب الانسان اكبر الأخطاء ، والتقدم صيحة جوفاء . . وضعت يدى على الحق الصراح . ان الحياة انما توجد فى داخلنا ولا وجود لها خارجنا . وان ارتفاعنا فوق مستوى أفراد جنسنا بقصد أن نتحكم فيهم ، ان هو الا تضخيم لعمل المدرس . ومن أمكنته قوته أن يسمو الى حيث يرى السماء . فأخلق به ألا يدير بصره الى قدميه .

وفى ضوء هذه الفلسفة ، قسم بلزاك سكان العالم لا الى أبطال وأوغاد ، وأخيار وأشرار . بل قسمهم الى فعالين ومفكرين وقديسين . وأدنى هذه المستويات مستوى الفعالين ، من المحاربين والتجار ومبدلى النقود . وأبطال الدفع والجذب . ويليهم رجال الفكر من العلماء والأساتذة والفلاسفة والمدرسين والمرشدين ، ثم يأتى أهل الخيال من الشعراء والفنانين والموسيقين والأنبياء ومنقضى العالم . فقد قدر للانسان - فيما يرى بلزاك - أن ينهض من العمل الى النظر عن طريق التفكير المجرد ، فاذا بلغ

المرحلة النهائية عاد اللحم المادى الى أصله المقدس . . عالم
الله الروحى .

ولم يتم بلزأك خطته العظيمة قط ، فهو فنان أكثر
منه صانع . ولا يستطيع أن يتم مهمته غير الصانع .
فلقد كتبت كل قصص المهزلة الانسانية فى كدح اليم
وأسلوب غامض ، وكثيرا ما كانت نيران الهامه يفشاها
السحاب من تعقد التعبير . لكنه ظل حتى آخر أيامه
يجهد فى ابداع آيته وترك منها صرحا ، زاد فى روعته
أن قوته لم تكتمل .

- ٥ -

فلما قارب الخمسين كتب القدر الفصل الأخير من
المهزلة البشرية لحياته الخاصة . فان الكونتيسا هانسكا
التي كان يتبادل القبلات وأياها فى الخفاء طيلة اثني
عشر عاما قد فقدت زوجها ، وأمكن آخر الأمر أن تكون
له . فكتب اليها فى هذيان مستمتع « لن أكون مدينا
بدرهم واحد يا عزيزتى ، سأصيب من أعمالى خمسمائة
ألف فرنك . دعك مما تدره (الملهة البشرية) مما يزيد
على ذلك المبلغ . وهكذا أيتها السيدة الجميلة ستزوجين
مليونيرا أو أكثر ان قدر لى أن أعيش » .

واتخذ له منزلا . وابتاع الصحف والطنافس
والحرير ، والأتواط والساعات والصور والمائلات ،
وأعدها كلها . ولم يبق الا اخراجها من صناديقها عشية
زواجهما . أعد هذا المنزل ليكون مأواهما فى شهر
العسل . وجعله تحفة رائعة تنتظر قدوم مليكته .

لكن مدام هانسكا كانت قد ملت هونوري دي بلزأك

منذ أمد طويل ، وهى الآن لا تأبه مطلقا لتلك العبقرية
التي كانت موضوع عيشها ساعات الفراغ . فظلت خمس
سنوات أخرى تتأبى عليه ، ثم ضاقت بحصاره إياها
فتزوجته . فكتب بلزак الى أختسه « لقد بلغت قمة
سعادتي فاني الآن في أوج أحلامي » .

ثم أفاق من سكرته فألقى سيدة أحلامه امرأة نصفا ،
متورمة الساقين والذراعين من النقرس ، وكثيرا ما كانت
تعجز عن السير . لكنها لم تشعر أنها ثقل شيئا عن أمير
قلبها ، وسر ذلك عندها وعند طبيبها . فبلزак يوشك
أن يموت .

فاذا بلغنا شهر مايو ، شهر الحياة والحب . كان
فكتور هيجو يزور زميله في الأدب ، فكتب تلك العبارة
الوجيزة « تزوج وهو غنى على أبواب القبر » ان استنراقه
التام لنشاطه ، وهو نشاط لم يعرف تاريخ الأدب له
مشبها قد حطم جسمه القوى آخر الأمر . وكان بصره
أول شيء ذهب ثم انحطم قلبه واستقرت في رجله
القنقرينا .

انه في شهره الأخير ، فنراه مختبئا في منزل فخم ،
وقد استلقى على أريكة يغطيها الديباج الأحمر والمذهب ،
وقد اصطبغ بلون الأرجوان من الألم وتعفنت ساقاه .
ولكن رأسه لا يزال بركانا يقذف بالمشروعات ، انه لمولع
بالأخيلة لكنه يدعها الى أحلام تفوقها جمالا .

وفي يومه الأخير جاءه فكتور هيجو يقدم تحياته . دخل
منزل الرجل الضئيل الخرافى ، وحاول أن يقرأ سر الحياة
في وجه يموت ، لكنه لم ير شيئا غير الموت والتحلل .
وكان بحجرة الاستقبال تمثال نصفى ضخمة للكاتب ، وكان

هذا التمثال الرخامي النصفى أشبه شيء بشبح الرجل
الذى يموت « فاذا دنوت من المضجع رأيت منظره الجانبى
وكان يشبه نابليون . وكانت ممرضة عجوز علية على
أحد جانبى السرير ، وعلى جانبى الآخر خادم رفعت
الغطاء . وأخذت يد بلزاك . وقالت الممرضة : سيموت
حول الفجر » .

مات فى الليل . ولا مرأ أن فرنسا كان يخيم عليها
الليل ، فالناس لم يكادوا ينتبهون لموته . لكنهم لم
يمنحوه تمجيذا ولا تكريما حتى فى حياته ، فحين تقدم
لعضوية المجمع الأدبى الفرنسى ، أوصد القوم المتعالون
الباب فى عنف دون ذلك « الجلف الفلاح » .

فالمجد — كما قال بلزاك — « هو شمس تشع على
الموتى » .

إسكندر ديماس «الآب»

(١٨٠٢ - ١٨٧٠)

- ١ -

كان إسكندر فى الرابعة من عمره حين مات أبوه ،
وخرجت أمه من حجرة الموت ، فرأت الطفل يصعد الدرج
وقد جر وراءه بندقية ثقيلة .

« الى اين ايها الطفل ؟ » .

« ذاهب الى السماء » .

« يا عجبا .. لماذا ؟ » .

« لأبارز الله .. فقد قتل أبى » .

وكان إسكندر منذ طفولته الأولى أشبه بالفرسان
الثلاثة ، محارباً متهوراً يجاهد صعباً غزيرة المنال . فقد
تحدث من أصلاب قوم من المغامرين والمحاربين . ولبنى
جده الأرستقراطى (دافى دلاباينزى) نداء الدم فأبحر
من نورمانديا الى جزيرة سان دومينجو . وعاش فيها
حياة الأباطرة ، يحوطه رهط من الأرقاء السود وقد
ولدت له احدى الاماء ، لويزا ديماس ، ابناً أسود ، أسماه
(توماس إسكندر) وقد ورث ابن دافى دلابايتري هذا
فوراًن أبيه وتهيجته :

« أريد لا تطوع في الجيش » .

فقال له أبوه : لا بأس . لكن يجب أن تطوع باسم أمك . فانه ليشقيني أن يحمل جندي أسود اسمي ذاك الشريف (دافى دى لاباترى) .

وهكذا انضم توماس أسكندر الى الجيش الفرنسى عام ١٧٩٣ باسم ديماس . وما هى الا سبع سنين حتى رقى من رتبة النفر الى رتبة القائد . ياله من رجل محارب ظريف عجيب شجاع دمث مفكر . ذلك الأرستقراطى الأسود ذو البشرة السوداء والشعر الكستنائى . لقد هاجم البرانس ، وأخذ ألفى أسير ، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن إحدى القناطر ، وكان دائما يحارب في مقدمة رجاله . . ولقد أغمى عليه مرة بعد معركة فأشرف على الموت ، فسأله مساعده حين فتح عينيه :

« هل جرحت أيها القائد ؟ »

« كلا . . ولكنى قتلت كثيرين جدا » .

كان يحارب تحت امرة نابليون بوصفه جمهوريا متوقدا . وظل جمهوريا متوقدا حين نصب نابليون نفسه دكتاتورا . . فطرد من الجيش مجللا بالاهانة والتحقير . في هذه الاثناء كان قد تزوج وأنجب طفلا قويا كأنه الرجل ، وزنه تسعة أرطال وطوله ثمانى عشرة بوصة . وقد ولد الطفل أبيض اللون والحمد لله . كما قالت أمه : له بشرة متوردة وشعر فاتح اللون ، وعينان زرقاوان ، ولم يبق من آثار أصله الأسود غير غلظة الشفتين فسموا هيليا الطفل أسكندر .

وقد شب الطفل منذ طفولته الأولى قويا في جسمه وعقله وروحه الشائرة . . . ان الرجل الشرير (نابليون) قد لطنخ أبى بالمسار ، فساكرس حياتى كلها لمحاربة الأشرار .

- ٢ -

وحاولت أمه أن تجعل منه عالما ، لكنه يبفض التعلم ، ثم تحاول أن تعلمه العزف على القيثارة ، لكنه يبفض الموسيقى . وأخيرا تحاول أن تحبب اليه العمل بالكنيسة ولكنه يفر من بيته ويقيم بالفسيابات أياما عدة . فاستسلمت أمه لليأس (أنه لا يقدر إلا على شيء واحد . . هو الكتابة بخط حسن ، لكن أى معتوه لا يقدر على ذلك ؟) .

ولكن اسكندر كان أبعد مايكون عن العته ، فله عينان يقظتان ، وعقل متفتح ، وقلب يسع العالم كله حبا . وهو على كراهته قراءة الكتب كان يتعلم فى سرعة مطبالة الحوادث الجارية فى صور بديعة شتى ، وكانت أعظم الأحداث تجرى فى هذه الأيام الشائرة ، ففي يونية عام ١٨١٥ رأى اسكندر عربة تفتح الشارع الرئيسى فى « فير كترية » ولح من وراء الستار هيكلا لرجل . . حازم . . مستقيم ذى عزم وإرادة ، هو نابليون يسير عجلا الى واترلو . . وما هى إلا أيام قليلة ، حتى رأى نفس العربة تفتح الشارع فى الاتجاه المضاد فرأى وراء الستار ، خيال الهيكل نفسه كسيرا غائضا فى وسائده ، محطما « هو نابليون قد فر من واترلو » .

وبعد هزيمة نابليون حاولت أم اسكندر أن تستعيد

ثروتها ومكانها ، فعرضت على ابنها أن يختار بين أن يدعى بذلك الاسم الأرستقراطي القديم (دى لبايترى . أو أن يستبقى ذلك الاسم المغمور المتواضع (ديماس) .

فأجاب الشاب الثائر (ساذل اسكندر ديماس) .

لكن ماذا عسى اسكندر ديماس ، حفيد الرقيق الأسود، أن يفعل لكسب عيشه . أن فى جودة خطه لجوابا على هذا السؤال ، فاشتغل نساخا فى مكتب الأستاذ (منسن) وهو مسجل صكوك حر المبادئ وصادق لأسرة ديماس .

وكان شاب السادسة عشرة ذو الساقين الطويلتين ، يقرأ فى هذا المكتب أكثر مما يكتب ، وكان هذا يحفظ عليه الأستاذ ، فقد أتم قراءة فولتير وكثيرين غيره من الأدباء الذين اذكوا لهيب الثورة ، لكنه كان فى تلك الآونة بالذات ، يشغله لهب من نوع آخر ، فقد تكشفت له فجأة جاذبية قوامه الطسويل الرشيق ، وابتسامته الخلافة البيضاء ، فشرع يغوى (اديل دلفن) وهى شابة من فتيات الطريق ، فلما نجحت مفامرتة مع الشابة فى سر فائق ، أخذ يقوى كفاءته تلك فى كد ومثابرة ، حتى غدا دون جوان (فيير كترية) .

ثم يستهويه مطمح جديد ، فما دام القدر رشحه للمجد العالمى . فلماذا يضيع مواهبه فى مدينة اقليمية صغيرة ؟ لماذا لا يذهب الى باريس ؟ .

ولكن كيف ذلك ؟ ان الرحلة الى باريس لتترف لا يسمح به فقر أمه ، وضحالة رزقه ، لكن ارادة اسكندر كانت لا تعرف اليأس فقد حلق فى ساعات فراغه لعب البليارد وتحدى الجميع ذات مساء فى الحانة أن ينازلوه . . وعاد الى منزله وقد احتوت جيوبه ما يلزم الرحلة من نفقة .

فإذا بلغ باريس ولى وجهه شطر المسرح الفرنسي . .
وحجرة استقبال ممثل المأساة الكبير (تالما) انه لا سبيل
الى إيقاف ذلك البصيص النوراني الذي تراءى في صورة
الإنسان . فأعجب الممثل العجوز بروح الشاب المفامر :
ما صناعتك أيها الصديق ؟ .

نساخ عند مسجل الصكوك يا سيدي لكني أود ان
اصير أديبا .

ولم لا تكون ؟ ان كورنى أيضا قد بدأ حياته نساخا
لمسجل صكوك .

شكرا يا سيدي . . هلا باركتنى لأصيب التوفيق .
« بكل سرور » .

ويضحك الممثل ويقول وقد وضع يده على جبين
اسكندر : هأنذا أكرسك للشعر باسم شكسبير ، وكورنى
وشيلر .

قال الممثل هذه الكلمات فى روح أقرب الى المزاح منها
الى الجد .

لكن المسألة عند دوماس ليست مسألة مزاح انه شاعر
يباركه شكسبير وكورنى وشيلر ؟ سأحقق هذه النبوءة !
سأحققها لتالما ولباقى الدنيا كلها . . فهيا .

وذهب الى منزله وجلس يحيل قصة سكوتس (ايفانهو)
الى تمثيلية .

- ٢ -

لم يستطع أن يجد منتجا لقصة (ايفانهو) ولا لتمثيلته
التالية ولا للتي تلتها . لكنه ظل يأمل . ويلهو بالنساء ويولد

له أبناء غير شرعيين ويكتب التمثيليات والقصص ويحاول في الحاح دائب ليفرض عبقريته على عالم عنيد . وكما رفض منتج أو ناشر أن يقابله كان يكتفى بالابتسام للسكرتيرة قائلا «شكرا يا آنستي لست ممن تجوز عزائمهم بسهولة سأمر ثانية » .

وأخيرا سنحت له الفرصة بفضل اصراره وتفؤله .

فان احدى تمثيلياته وعنوانها (كرستيانا ملكة السويد) قد قبلت للتمثيل في المسرح الفرنسي واختير الممثلون ، وبدأت التجارب وتقرر النجاح للمؤلف الشاب . لكنه ألقى بالفرصة جانبا وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس . فان مؤلفا مسرحيا آخر . . رجل عجوز قضى طول حياته يحاول الوصول الى المسرح على غير طائل قد اتم الآن فقط مثلهما فعل ديماس تمثيلية عن ملكة السويد . فقال ديماس « فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته على المسرح قبل أن يودع الأرض » وسحب روايته في اشارة وشهامة . .

ثم شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها (هنرى الثالث) وظفر لها بمنتج وجعل ينتظر على أحر من الجمر حفلة الافتتاح . وكانت ليلة ١١ فبراير عام ١٨٢٨ فأخذ ديماس في ارتداء ملبسه استعدادا للمسرح . لقد أعد كل ملبسه مقدما (السرعة . . السرعة حذار من التأخر فلبس حذاءه وسرواله وقميصه . . وفجأة وجد أنه قد نسي شراء زيتق فاستل مقصا وقطع به زيتقا من الورق المقوى لف به عنقه . ثم هرع الفارس الورق) الى المسرح ونظر من خلال ثقب في الستار « ان القاعة مزدحمة حتى الأبواب » .

كانت الحفلة نصرا باهرا . واستحالت ضجة الإستحسان هذا اسدال الستار الى هديان محموم حين ظهر المؤلف .

ورأسه مرفوع عاليا ، حتى أن ناصيته غير المشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح . ذلك هو الرقيق ذو الزيق الورقى قد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسى .

وأقبل ديماس على مملكته كأنما قد ولد للملك . فهو يوزع الابتسامات ويتقبل التكريم ، ويستاف النجاسات الحلوة كما يستاف نسيم الفجر . ويكتب تمثيليات جديدة ويحظى بانتصارات جديدة ويفزو معشوقات جديدة .

ثم يقوم بمغامرة جديدة . فقد صار الكاتب محاربا . ذلك بأن شارل العاشر قد أصدر مرسوما بخلق حرية الصحف فثار المثقفون الباريسيون على المرسوم وانضم ديماس الى الثورة .

وفي هذه الثورة كان نصيب ديماس من الصياح أكثر من نصيبه من الكفاح . وكان دوره في الحرب أشبه بدور الذبابة على عجلة المركبة . ولكنه يحظى بأن يفرث وجهه في العرق البارد . ويحظى بالنصيب الأوفى من التصفيق . قال له لافيت صائحا وهو يعانقه (مستر ديماس لقد ألفت أعظم رواياتك) .

فشكر ديماس لافيت على تحيته . وعرض عليه أن ينظم الفلاحين الفرنسيين . وقبل لافيت ماعرضه ديماس ، فازدان ديماس في ملابس صارخة الألوان (فهو كالأفريقيين يزدهيه البهرج) وحذاء لامع وسروال في اللون الأزرق الملكي وسترة قرمزية ذات أكتاف فضبة وخوذة لها ريش أحمر متموج وشريط مثلث الألوان . ثم شرع يعمل مع مساعده وكان هذا المساعد مزورا قد أنقلده من المشقة . وخطب جماهير الفلاحين وأمتعهم وفشل فشلا الينا في محاولة تنظيمهم .

لقد فشلت الثورة تماما ولم ينجح الثوار الا فى اسقاط ملك سيىء وتتويج ملك أسوأ .

فغادر ديماس فشله السياسى الى نجاحه الأدبى ، فألف مسرحية .. أنطونى وهرعت باريس كلها تتماجن وتستمتع بقوتها التمثيلية والإباحية « يا الهى ما أوقعه من مؤلف ! وما أمتعته من شاب ! » وقد مزقت السيدات أطراف سترته فى حماسة الليلة الأولى .

ويظل الزنجى الوقح الممتع بصدريته الزاهية ، وأسنانه اللوامع ، يدور على متن دوامة القدر . فيولد له طفل وتهجره عشيقته ويصاب بالهزيمة ويؤلف مسرحية أخرى ناجحة .. ثم يشـارك فى ثورة فجأة أخرى ويفر الى سويسرا خشية أن يقبض عليه لأنه « جمهورى خطر » ثم يطمح الى العمل فى الكنيسة على حين بفتة ولم لا ؟ .. لقد خلقت المسرح الجديد فلأخلق فى الدين مذهباً جديداً .

لكنه ترك الفكرة فجأة ، كما قد أخذها فجأة . فهو ثائر لا ينسجم طبعه مع هدوء الكنيسة . وان متع الأرض لأشهى من أن تستبدل بها وعود السماء . « وأنى لأوثر أن أظل وثنيا وأدفع الثمن فى الآخرة » وظل الى آخر أيامه وثنيا يسلى الرجال ، ويفسوى زوجاتهم ، وينتج مسرحياته ، ويرفل فى حلل المجد ، ويواجه ما يلقي من نجاح وفشل بتهامل طيب كريم . يلقي المديح بهزة كتف ، والإهانات بابتسامه .

ولكن ان صدر القدح عن حقد بالغ فهو أحيانا يمزج بابتسامته الحلوة شيئاً من الملح . كان شاب من الأشراف يباهى بأصله ، ثم التفت الى ديماس وهو يقول (حدثنى الآن عن أصلك) .

فأجابه ديماس (ولد أبى فى الهند الغربية . وكان جدى زنجيا . وكان جدى الأعلى قردا . . يبدو أن أسرتى قد ابتدأت من حيث انتهت أسرتكم) . وقال له يوما بلزأك منافسه المر فى صالون أدبى محاولا أن يخضد شوكة الروائى الشاب (حينما تستنزف مواهبى ساكتب التمثيليات ففاجأه ديماس بقوله : أذن فاكتب التمثيليات حالا) .

- ٤ -

فى السادس من فبراير عام ١٨٣٢ ظهرت فتاة موهوبة من المونتبارناس تدعى (ايدا فريير) فى أخرى مسرحيات ديماس (تريزا) وبعد التصفيق الذى أعقب اسدال الستار الأخير ألقت الممثلة بنفسها بين ذراعيه (مسيو ديماس لقد خلقت شهرتى . كيف لى أن أرد جميلك يوما ما ؟) فقال لها (ليس أسهل من ذلك) وأرسل عليها ابتسامته التى لا تقاوم . وظلت سنوات عدة ترد عليه جميله . ثم تزوجا ، الأمر الذى دهش له الجميع فأسلم ديماس نفسه لحياة منزلية . . ورضى الوميض بالأغلال . لكن الأغلال كانت تتدلى على ظهره ، ولا تلجم قوته المتهورة . فطالما كان يترك صاحبتة ليفامر خارج المنزل . . وكان يسمح لزوجته فى سماحة أن تبحث هى عن مفامراتها الشخصية فى المنزل اذ كان شعاره (عش . . ودع غيرك يعيش) .

وانه لدائم البحث عن مشيرات جديدة ، وغرام جديد، وتهليل جديد . فان أمجاده المسرحية قد بدأت تخبو . ونيران الثورة قد خمدت فى العالم كله . فلا بد لطاقته القلقة من سبيل جديدة . لكن أين ؟ وكيف ؟ .

« آه . . لقد وجدت السبل الجديدة في القصص التاريخية » لسوف يعيد الماضي الذي مات إلى حياة صاخبة . لقد مات والتر سكوت ملك الخيال فليحي الملك الجديد اسكندر ديماس ، وشرع يعمل كالمحموم في روايته التاريخية الأولى الفرسان الثلاثة ، وكان يعينه في البحث التاريخي Auguste Maquet وهو عالم له بصر بالحبكة القصصية . أما ديماس فكان لا يعنى بالحقائق الميتة ولكنه شديد العناية بحقائق التاريخ الحية فهو يقول (لا بأس من انتهاك حرمة التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلا) .

وجعل يعمل في قصته لا يدركه التعب . . من الساعة صباحا حتى الساعة مساء . مرتديا قميصا بلا اكمام مفتوح العنق ، وإلى جانبه وجبة غذاء لم يمسه في الأغلب . وإذا تصادف أن مر به زائر في ساعات العمل ، لوح له بيده اليسرى محييا بينما اليد الأخرى ماضية في الكتابة . كان يعمل دائما في احتشاد هائل . لكنه احتشاد اللامع ، فهو يعيش مع أشخاصه ويحدثهم ويمارحهم . وقد جاء رجل من الانجليز لزيارته فسمع ضحكة تنفجر من مكتبه فقال للخادم :

سأنتظر حتى يكون سيدك بمفرده .

فأجاب الخادم ان سيدي بمفرده . . وانما يضحك من فكاهة حلوة سمعها من شخص في روايته . كان يعيش مع أشخاصه نهارا ومع اخوانه ليلا ، فاذا سألته الناس كيف استطاع أن يشعر بالمرح والنشاط بعد كده اليومى ، أجاب بأن محصوله اليومى لم يكن على الاطلاق (انى لا أؤلف رواياتى ، بل أنها تؤلف نفسها في داخلي) لكن كيف ذلك ؟ (لست أدري . . سل شجرة البرقوق كيف حملت اليك ثمارها) لقد أوتى موهبة الخالق ، وموهبة الصداقة

ألفامضة والأشد ندرة . فهو يحتفظ دائما ببيته مفتوحا
وقلبه مفتوحا .

وكانت ساعة الغداء بمنزل ديماس تمتد من منتصف
الساعة الثانية عشرة الى منتصف الساعة الخامسة .
وكان يقبل ضيوف جدد دائما . . وكان على الخدم ان
يهرعوا الى القصاب يشترون شرائح لحم جديدة . واذا
استطاع ديماس ان يستريح من عمله فهو يختلط بضيوفه
بحرية . فكان يأتي من غير دعوة كثير منهم على الرحب
والسعة ، قال له صديق (اتفضل بتعريفى بالسيد الذى
هناك ؟) فأجابه (كلا لا أستطيع فانى لا أعرفه) كان
كرمه أشبه بهوة ليست بذات قرار . وهو أبدا يلقي
فيها بكل ما يكسب . فهو دائما مدين . حتى أصبح
المحضر أشد ضيوفه مواظبة على زيارته وحدث مرة أن
طلب اليه صديق المعاونة على دفن رجل مسكين مات
لتوه . فأخرج ديماس من جيبه خمسة عشر فرنكا
وسأل : (ومن ذلك الرجل المسكين الذى مات ؟) .
محضر .

فقال ديماس صائحا اذن فانت سوف تدفن محضرا . .
اليك خمسة عشر فرنكا أخرى . . ادفن اثنين منهما .

- ٥ -

وبينما جيوب ديماس يفيض منها المال ظلت شهرته
تسمو من قمة الى قمة . فهو يتنقل من تحويل التاريخ
الى قصص الى تحويل القصص الى تاريخ ، فان قصة
(مونت كريستو) والتي شارك فى كتابتها Maquet
هى من صنع الخيال الصرف لكن أشخاصه كذلك بهم من

الحيوية ما جعل الهداة في مرسيليا حتى يومنا هذا
يشيرون للزائر الى بيوت Mosel Mercedes وصوامع
Edmond Dantes ورئيس الدير Foria في قلعة (IF)

لقد خلق ديماس من السحب والأبخرة مساكن قوية،
ورجالا أحياء . ولم يكن ديماس يهدف الى الخلق ، بل
كان يهدف الى الامتصاص . فمهمة المؤلف فيما قال ان
يكتب في روح مستمتعة حتى يحيا أشخاصه مسرورين .
ما قيمة أى فن ما لم يبعث الناس على المرح ؟ لم يدع
الشعر وانما كان يهدف الى البراعة في القصة . فاذا قال
له أحد ظرفاء النقد انك تكتب عن أحداث لا علم لك
بها البتة - رد عليه ديماس بقوله : لو انى ادرس
الأحداث فانى لى الوقت اللازم لكتابتها ؟ فكان (ماكيه)
ومساعدوه الآخرون (وكان أعداؤه يتهمونه بإدارة مصنع
للقصص يعمل بانتظام) يمدونه بالحقائق الجافة . وكان
يأخذ هو هذه الحقائق ويعمل فيها نار الخيال وروح
الحياة .

وهكذا جلس في مصنعه حتى اقبل ليل حياته الأدبية
وكان أشبه بالراوية العربى ، الذى يطيل سهر قبيلته
تحت سماء البادية المزدانة بالنجوم . فاذا قاربت نهاية
السهرة كانت كأس نجاحه قد مزجت بمرارة الحسد ،
ولكن هذه المرارة نفسها لم تحل من زهو . فهو انما
يحسد ابنه . . ذلك بأن اسكندر ديماس (الابن) قد كتب
قصة غادة الكاميليا التى فاقت في شهرتها كل ما كتب
أبوه فجعل كل من الأب والابن يحاول التفوق على صاحبه
بأن يقدح في صاحبه ويحب صاحبه ويوشك أن يعبد ،
فيقول اسكندر ديماس الأب « لقد أنجبت ولدا . .
فاستحال الى ثعبان » فردد عليه ديماس الابن عابثا

« وان اعميت ابا فاستحال الى طفل » .

ظل حتى آخر حياته مستهترا ضاحكا مغامرا . ورغم تقدم سنه ، وثقل جسمه لكثرة ما أصاب من مائدة النجاس . فقد ظل عقبله هائجا قلقا على عهده فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها ، فقد استعد عام ١٨٤٨ الآن يقود الحرس الوطنى الى باريس ، ولكن الحرس الوطنى يرفض أن يتبعه وانضم عام ١٨٥٩ الى حركة غاريبلدى ولم يكتف بالمشاركة بثروته التى بلغت ... فرنكا ، بل عرض أن يهب حياته نفسها دفاعا عن الحرية الايطالية ، وقبل بعد أربع سنوات أن يتولى قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك . ولكن يتبين له أن منظم الثورة (الأمير Skandenberg) رجل محتال . وكان نشاطه القلق دائم السعى الى التعبير عن نفسه تعبيرا عمليا فلم يجد الى الراحة سبيلا .

ويعود الى باريس وهو فى عامه الثالث والستين ، بعد أن زار ايطاليا للمساهمة فى الثورة ، فيقابله ابنه فى المحطة فى الساعة العاشرة ليلا (لابد انك متعب جدا بعد ما بدلت من جهد يا أبى ، فدعنى آخذك الى المنزل !) فصاح ديماس الأب كلا ، أريد لأرى جوتير قبل أن آوى الى فراشى . وأخذ ابنه غصبا الى منزل صاحبه القديم . وكان المنزل موصدا حين بلغاه فآثار ديماس ضسجة أيقظت جوتير من نومه . ما الخبر ؟

ديماس الأب وديماس الابن .

لكننا جميعا فى الفراش .

ماذا ؟ فى الفراش فى تلك الساعة المبكرة ، اقبلوا أيها الكسالى نيقظوا جميعا وكانت الساعة قد بلغت الرابعة

صباحا حين عاد الأب والابن من منزل جوتير، ثم قال ديماس الأب (الآن يا اسكندر أريدك أن تأتي لى بمصباح) (لماذا؟) (لدى عمل أريد انجازه) ثم ترك الابن أباه أمام مكتبه وذهب لينام . فاذا صبحا بعد الفجر بزمن طويل وجد على المكتب ثلاثة مقالات تامة معدة لثلاث مجلات ووجد ديماس الأب يحلق ذقنه ويفنى أمام المراة . (كيف أنت يا أباه؟) (غض منتعش يابنى ، كأنى اقحـوانة ندية) ثم يتبدى فى عينيه بريق وهو يقول « أترانا نحن الشـباب يدركنا التعب فى سهولة كما يدرككم معشر الشيوخ » .

- ٦ -

وأخيرا يلقي شـباب الثامنة والستين بقلمه جانبا ليستريح لا تعباً من مغامراته القديمة بل شـغفا بأن يجرب شيئا جديدا ، وكان قد فرغ لتوه من غرامه الأخير مع الممثلة الأمريكية (ادا منكن) وكان هذا الغرام عاصفة قصيرة سريعة انتهت بمأساة حين قتلت الممثلة فى سقوطها عن ظهر حصانها . فذهب ديماس الى منزل ابنه (بنى) لقد أتيت اليك لأموت) ولم ينبس بعدها ببنت شفة . فاذا هز صحابه وعوسهم محزونين وهم يقولون أن ديماس قد اضمحل وانهار رد عليهم ابنه بقوله (أن عقلا كعقل أبى لا يمكن أن يضمحل أو ينهار . ولئن رفض أن يحدثنا فى لغة اليوم فذلك لأنه أخذ يتفهم لغة الخلود)

فيكتور مارى هييجو

(١٨٠٢ - ١٨٨٥)

- ١ -

كان فيكتور مارى هييجو عام ١٨٦٥ منفيًا على جزيرة (جرنسى) فقد نفاه نابليون الأصغر من باريس لاسرافه في حب الانسانية ، فاذا كان التاسع والعشرون من ابريل من تلك السنة جاءه خطاب . . اذ كان الرجل ذائع الشهرة جدا بعنوان فيكتور هييجو ، بالمحيط . وبعث في نفس اليوم مع وزير امريكا في بلجيكا بخطاب موجه الى «مواطني من أبناء العالم» وقد أعرب في هذا الخطاب عن حزنه على مقتل لنكولن (لقد ارتج العالم كله لذلك الهول الذي أصاب واشنطن) ثم يختتم المنفى خطابه بتوقيعه (مواطن مخلص في جمهورية البشر) .

وان من الناس من يعتبر فيكتور هييجو وابراهيم لنكولن بمكان العقل والقلب من القرن التاسع عشر .

- ٢ -

ومن عجب ان الطفل الذي شاء له القدر ان يكون اكثر الجمهوريين الاوربيين حماسا قد نشأ على تقديس الملكية . فقد كان أبو فيكتور هييجو قائدا في جيش نابليون وحين بلغ فيكتور عامه الحادى عشر رأى نابليون خلال شوازع

- ١٥٥ -

باريس راكباً . مارا عتني اذ ظهر الامبراطور واشتملت على تلك الرهبة المقدسة ضجة الجمهور الصاخب الذي يسير وراءه يردد الأناشيد الجماعية ، وانما راعتني رؤية الامبراطور يتحرك صامتا شجاعا كأنه اله من البرونز . وظل فيكتور هيجو حتى بعد اكتمال نضجه يرى في أباطرة فرنسا انهم قد شاركوا البرونز صلابته .

وقد جاءه حب الامبراطور من طريق أمه أكثر مما جاءه من طريق أبيه . اذ كانت السيدة هيجو تنتعل دائما حذاء أخضر . . لأن الأخضر يرمز الى ملوك فرنسا . وكان الأخضر أيضا لون عيني مدام هيجو . وكانت هذه السيدة غيورا على زوجها دائما ، وكان زوجها غيورا عليها دائما ، وكان لهذا وذاك سبب فحياتهما الزوجية كانت سلسلة تتعاقب فيها المصالحات والانفصالات . . وجود نساء غريبات في بيت الجنرال هيجو ورجال غرباء في منزل مدام هيجو . أما فيكتور فكان يعبد أباه وأمه جميعا . . رغم ان حياة أبويه المضطربة قد جرت على طفولته تجوالا لا يستقر من باريس الى بوردو ، ومن بوردو الى سيجوفيا ، ومن سيجوفيا الى مدريد ، ثم عود من مدريد الى باريس .

وكان من أثر هذا التجوال ان جاءت تربية فيكتور الصغير تربية مهوشة . . فقد أصاب معلومات من هنا ومن هناك يعوض تشعبها ما يشوبها من سطحية .

قال صديق لأمه (هذا الطفل يعرف القليل عن كل شيء) فأجابت أمه (نعم يعرف القليل القيم عن كل شيء) . وهكذا جعل يتنقل من مدرسة الى مدرسة . يستاف عجلا رحيق هذه الزهرة ورحيق تلك . . حتى وصل في

عامه الثالث عشر الى كشف عظيم هو شمس فرجيل (ديكوت) فترجم الأنشودة الأولى لفرجيل وكوفىء على ذلك بضرب صبه عليه مدرس له ، فقد فرغ ديكوت لتوه من ترجمة نفس الأنشودة التي ترجمها هيجوفكيف يجرؤ هذا المبتدئ الصغير على منافسته . فجفف فيكتور عينيه . . ومضى لشأنه . فنظم أغنية في مسابقة مدرسية . . لم يكن ديكوت من المحكمين فيها فنال الجائزة الأولى وكتب ملحمة وتمثيلية وقصة فشراف بتلقيبه الطفل الأسمى .

وبرهن الطفل الأسمى على انه قد نضج قبل أوانه ، لا في الأدب وحده ، بل في الحب أيضا ، فهو في سن السابعة عشرة يخطب فتاة في السادسة عشرة هي : (اديل فوشير) « أتذكرين يا اديل ؟ لقد كنا في السادس والعشرين من ابريل ١٨١٩ ، حين جلست عند قدميك ذات مساء . فطلبت مني ان افضى اليك بسرى الأعظم . فاعترفت مرتعشا بأنى أحبك ، فلما سمعت جوابك يا اديل العزيزة وجدت في نفسى أسدا جسورا » .

وتزوجا بعد عامين فما أبهاهما من زوجين . هذه الفتاة ذات العينين السوداوين الجريئتين والبسمة الشيقة ، وهذا الفتى بفم الشاعر وجبين الجندي . وما أمتعها من حفلة زفاف ! كانت مناسبة فاضت بالعسل ، واللبن ، والزهر ، والفاكهة ، والضحك ، والحب . .

غير ان الحفلة قد ترددت فيها نغمة ناشر واحدة ، فقد اقترح الحفل رجل يحمل قاسا . وسار صسوب العريس ليلوى على شيء ، واستطاعوا أن يحولوا بينه وبين ما يريد . ياله من مجنون ، انه أوجين أخو فيكتور الأكبر أصابه من الغيرة مس . . فقد كان هو أيضا يبغى

الزواج من (اديل) .

وكان المشهد العاصف ليلة الزفاف مقدمة حياة عاصفة لفيكتور، فصارت الريح تهب عليه تارة بالسرور وتارة بالأسى في عدل واستواء . فهو يكتب ديوان شعر ناجح وتمثيلية ناجحة ، ويحظى باعجاب الجمهور وثناء النقاد، ويمنح شريط ائليجيون دونير ، ويولد له طفل لايلبث ان يموت وتموت أمه .

وتنكشف له خيانة من صديق كان أعز عليه من أصدقائه جميعا . ذلك هو الناقد سانت ييف الذي انقلب عليه . . اذ حاول مع زوجته امرا لم تفره عليه . كانت هذه الفكرة المرة تملأ شفاف قلبه حين حضر افتتاح مسرحيته (ارناني) وكان عرضها حدثا عظيما . فقد كتب لتمثيلية « هيجو » هذه التي تحررت من التقاليد ، ان تكون فاتحة الجهاد بين الابتداعيين والاتباعيين ، بين نار الجديد ورماد القديم فقد تحدى هيجو خصمه الى منازلته اذ يقول « في هذه المسرحية تحطيم أي تحطيم لكل النظريات وفنون العروض والمذاهب اني أمسح عن وجه الجمال ذلك الطلاء العتيق الذي كان يحجبه ، فلن تكون قواعد ولا نماذج بعد الآن » ومثلت المسرحية في ضجة يختلط فيها الاستهزاء والاستحسان . فاذا اسدل ستار الختام ، تغلب هتاف الاستحسان . وتطلع النظارة كلهم في حماسة فائقة الى ملك القصص المتوج الجديد . ولكن هيجو لا يشعر بعاصفة الإعجاب فعيناه معقودتان بالشرقة التي يجلس فيها سانت ييف ناظرا الى (اديل) لا يتحول عنها .

والحف هيجو على سبانت بيف في الرجاء ، فوعده
سانت بيف ألا يرى (اديل) بعدها قط ، إلا انه لا يفي
بوعده . بل يصر على مقابلتها والكتابة اليها . . مخالسه
كما حسب ، ولكن الأمر لم يفت على هيجو ، وحاول
هيجو أن يندمج في عمله لينسى أساه . فكتب قصته
(نوتردام دي باريس) وقد بدأها في ٤ سبتمبر عام ١٨٣٠
واشتغل فيها متحمسا كالمحموم خلال الخريف وأوائل
الشتاء ، وأتمها في الخامس عشر من يناير . انها قصة
معبد مقدس ، هو بناء حجري له روح حية ويقول المؤرخ
الفرنسي مشليت « لقد أقام هيجو الى جانب الكاتدرائية
القديمة ، كنيسة نوتردام ، كاتدرائية للشعر تعدلها
رسوخ قدم وشموخ أبراج » .

ثم يختلف عليه تصفيق الاعجاب وعذاب الغلب والعمل .
ثم يقع في غرام جديد . . مع (الطير الناري) جوليت
المثلة الحسناء التي عبت بجسمها كثير من الرجال ،
ولكنها تكرس قلبها الآن لرجل واحد . وتظل خمسين عاما
هائمة ولهى بفكتور هيجو .

وظل فيكتور هيجو هائما ولهان بجوليت لا عن زهادة
في حب (اديل) . فان هذا الحب قد بقى ولم يزل . .
ولكنه صار أشبه بحب الطفل لأمه منه بحب الزوج
زوجته . ولعل (اديل) قنعت بهذا اللون الهاديء من
الحب . فقد كان شعورها نحو هيجو . . ونحو سانت
بيف ، شعورا افلاطونيا دائما لا تملك فيه ولا حيازة .
فالحب عندها شمس مائلة فهي تستمتع بدفئها المتحرر
قناعة بالبقاء بعيدا عن وهجها العمودي .

وأما غرام هييجو وجوليت ، وكانت لا تخلو هي أيضا من لمحة الشعر ، فكان أشبه بلهب قاهر غلاب ، فهما لم يعرفا قط ذلك الشعور بالشبع والملالة من الحب . وظل طوال نصف قرن ، بعد ليلتهما الأولى يستجيب لخمير قبلاتها (انى أقبل جسمك وروحك ، انت الجمال وانت النور ، وانى لأعبدك) .

وكانت جوليت معبودة هييجو تلك ، طفلة لا اسم لها من أطفال الشعب . كانت لقيطة وهي عند هييجو ترمز الى كل لقطاع العالم . وكان من أثر حبها اياه انه تحول تدريجا من بوروبونى الى برجوازي ، ومن ملكى الى اشتراكى . ويعلن انه منذ الآن سيصدر فى حياته عن اخلاص مشفق للمنبوذيين ، فلسوف يستخدم كل ما اوتى من قوة - كما قال - فى الدفاع عن المستضعفين . وظل هذا مبدأه الذى يترسمه حتى آخر أيامه . فهو ينضم الى صفوف الشعب فى ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ وهو بهذا لا يخاطر بسمعته وحدها بل وبحياته نفسها . فهو فى ثورة ١٨٤٨ يحارب فوق المتاريس (لقد قتلنى الاجهاد فقد قضيت ثلاثة أيام ولياليها يقظان فى وسط المعركة وليس ثمة فراش ، ولا طعام ولا شراب غير النذرايسير ، وليس من طريق للراحة غير الجلوس على الرصيف لحظة بين الحين والحين) .

وبينا هو خارج منزله قائم عند المتاريس ، اذ هاجم منزله من يدافع عنهم من الناس ، وجعلوا يتنقلون من حجرة الى حجرة ، يحطمون ويمزقون ويكسرون ، حتى بلغوا حجرة مكتب فيكتور هييجو ، فأوا شبتا على مكتب عال قرب الشباك، اذ كان هييجو يكتب دائما وهو واقف، رأى المهيجون عددا من الأوراق مبعثرة .. وكان زعيم

المهيجين مدرسا سابقا يدعى (جوبير) فألقى نظيره على الأوراق انها بداية قصة . تم نظر الى صحيفة العنوان . ليس اسمها سيئا . فسأل احد رفاقه ما اسم القصة ؟ (البؤساء) .

- ٤ -

بدا هيجو كتابة (البؤساء) في باريس ، واثمها في (جرنسى) وهي الجزيرة التي نفى اليها لماهضته طغيان نابليون الثالث . وظلت عاصفة أقداره تلاحقه ، فجعلت الحياة والموت يتبادلانه ضما ولكما ، فهو يختار للأكاديمية ، وتفرق ابنته (ليوبولدين) عند مصب نهر السين . ويعترف به شاعر فرنسا ، وتموت له ابنة أخرى قبل الأوان ، ويحج الى مزار جزيرة القديس ، ثم يصيبه غرام تعم يتبعه جنون ابنته الثالثة . هكذا جرت الأحداث التي حفت بتأليف (البؤساء) .

فاذا كتب ملحمة الأسى البشرى هذه ، ربت الله علم كتفه واحال بصره من الأرض الى السماء (لقد دعتنى الأرض شاعرا .. فجاءتها السماء بل نبيا) . فهو من خلال شقائه قد صار نبي الألم (لقد واجهت رهبا الموت .. فوجدت فيما يليها زهرة الحياة .. زهرة الحياة أمل من لا أمل له ، أنجيل المتواضعين المستضعفين . عطف الله وحده على كل مخلوق معذب) .

هذا هو موضوع (البؤساء) احالة العذاب رحمة ، واحالة الرحمة حبا . وكان كتابا ثائرا صاخبا عطوفا . استشرى في العالم نارا جائحة ، فقد حاصر الباريسيون مكتبة (بانير) في السادسة صباحا من يوم نشره ، وما

هى الا بضع ساعات حتى كانوا قد مضوا بخمسين ألفا من نسخ الكتاب، وهتف بفيكتور هيجو الذى أسر وحده على صخرة (جرنسى) المواطن الأول للعالم ، وتلقى المواطن الأول أمجاده فى اعتداد متواضع .

وأخذت سنه تصفر كلما مرت السنون (فتحت شعري الأبيض يعيش حب ربيع الحياة فالنـبـور لا يعرف الشيخوخة) . لقد صار من الجبابة فى الاحتمال الجسمى والعقلى فهو يستيقظ عند الفجر ويندفع فى البحر. ثم هاهو ذا واقف قبل شروق الشمس أمام مكتبه. ويصيب قدرا من الراحة بعد الظهر مع أقلام الرسم ، فهو يحب النقش قدر ما يحب الأدب . ثم يسير فى نزهة طويلة على شاطئ البحر ليستمتع بالشمس ورشاش الماء الذى تدره الرياح .

وهو لا يستخدم قط عصا يستعين بها فى مسيره فوق الصخر ، ولا مظلة تظله من المطر . فهو لا يخشى الحر أو البرد (انى خالد لا أموت ولا يستطيع شىء ابدائى..) وكان أكالا أكىلا. فهو يجهز على عدة صحاف من اللحم فى جلسة واحدة . وقد مرت به أيام كان لا يرد جوعه دجاجتان .

نهم فى أكله ، نهم فى تفكيره ، نهم فى قبوله أحزان الحياة ومسراتها . هل الحزن إلا مقدمة السرور ولو اننا دربنا آذاننا على استماع سيمفونية الحياة لتبين لنا انها تنتهى بنغم جميل .

واجه فى هذا الاطمئنان المطلق موت اثنين من بنىيه وموت زوجته (اديل) وفى هذا الاطمئنان واجه الفوز الألمانى لفرنسا عام ١٨٧٠ وكان حينذاك قد عاد من منفاه بجرنسى (كل امرئ الى الجبهة أيها المواطنون. لتنهض

المدن عن بكرة أبيها . ولتشعل النار في كل الحقول .
المدن المدن المدن . انشئوا غابات من الجراب . ضاعفوا
من رماحكم وأعدوا مدافعكم . وانت أيتها القرية ارفعى
مشعلك على كل رجل غنيا كان أو فقيرا عاملا كان أو
فلاحا أو كاتباً أن يحضر معه أو يلتقط من الأرض كل
ما يشبه السلاح أو القذيفة . جروا الصخور وكوموا
أحجار الرصف . أحيوا الأخاديد إلى خنادق . اقتلعوا
الأحجار من أرضنا المقدسة اقدفوا الفزاة بعظام أمننا
فرنسا) .

ثم ينبعث من عينه ضوء يشبه بالمستقبل (لا تخشوا
هزيمة اليوم بل كونوا قلباً واحداً ويداً واحدة تعمل
لهدف واحد هو النصر في النهاية) .

وبهذا الإيمان نفسه . الإيمان بنبالة الأسى البشرى .
وبتوجيه الكد البشرى إلى هدف محدد كتب قصة من
خير قصصه عنوانها (السكادحون في البحر) وهذا موجز
لها غير وافي :

تنشأ صداقة بين (ليتيرى) عم دروشت الساحرة
وولى أمرها وبين المفامر (رانتين) ويرد رانتين على مودة
ليتيرى بأن يسرق منه ... ر.ه. فرنك ، وكان هذا المبلغ
هو كل ما ادخره ليتيرى طيلة أربعين عاماً وكان مخصصاً
ليكون صداق (دروشيت) . وتصير دروشيت وقد صار
يتعبد لها فتى في صمت . ذلك هو جيليات وهو شاب
لأريب في شجاعته ، وأن حفت بميلاده الريب . وكان
يتعبد لها على البعد ، وليسكنه يشعر أنه أهون من أن
يفاتحها بحبه .

وينقذ جيليات قسيساً من الفرق ذات يوم ، فيهبه القسيس
جنيهاً ، فيرفض جيليات ويقبل الإنجيل حين يعرضه

عليه . فينشأ موقف طريف ، فتاة حسناء صداقها قد سرق ، شاب ذو مركز وضيع يحب الفتاة حب المستيثس ، وشاب آخر أرفع مكانا وأرقى تعليما. هذا هو الثالث الذى لا مفر منه ، لكن فلنمض فى سبيلنا لنرى كيف يمضى المؤلف فى تنمية موضوعه وكيف يحكم الوشائج بين مصائر هؤلاء الشبان الثلاثة ومصائر غيرهم من الناس .

وكان لليتري عم (دروشيت) زورق بخارى يدعى الدوراند يقوده الربان كليبان وكان ليتري قد فقد كل سفنه الأخرى وانحصرت كل آماله فى الدوراند وربانها. وكان الربان رجلا أميناً يستحق ثقة سيده فيه ، قابل فى إحدى رحلاته المحتال وانتين الذى سرق مال ليتري والذى كان على وشك الفرار من البلاد بثروة تقدر بخمسة وسبعين ألف فرنك ، فيضطره وقد شهر عليه القدارة الى أن يسلمه المال ثم يقلع الى ليتري ليعيد المال اليه .

وهنا يزيد المؤلف فى تعقيد القصة ليطيل خيوطها فتتحطم البساخرة دوراند فيرسل كليبان ركبها الى الشاطئ فى القارب الطويل وينتظر الموت فى هدوء فوق السفينة الفارقة . لقد كادت تتحطم الآمال التى وضعها ليتري على مستقبل دروشيت فقد خسر الدوراند ولم يبق منها شيء عدا الآلات التى كان ليتري نفسه قد رسم تصميمها . ولو أنه استطاع فقط أن يستعيد الآلات اذن لأمكنه بناء سفينة أخرى حولها وقد تعود الحياة سسيرتها ، فهل من أحد يستطيع الى الآلات سبيلا ؟ .

لو استطاع ذلك أى رجل فله يد دروشيت. فينبى

أحد الناس لهذا العمل الذى يكاد يستحيل نجاحه .
ذلك الرجل هو (جيليات) . فيهرع الى حطام السفينة .
وكان تحت هوة فى القناة . وكان بلوغه يستلزم النزول
تسلقا على حبل معقد وكان عملا فوق طاقة البشر أداه
فى جسارة بالغة . وجعل يكد يوما بعد يوم ويتحمل
الجوع ، اذ قد أطاح البحر بجزء من قوته الذى أحضره
معه . فهو يعيش على الأصداف والسلطعون (ضرب من
النبات) حيثما استطاع استخراجها .

و ذات مرة كان يخوض ماء ضحلا فى أحد الكهوف
فهاجمته سمكة ضخمة . غير أنه نجا بأعجوبة .

وهكذا يظل جيليات كادحا كأنه رمز لكل أولئك
الآدميين الكادحين الذين يجهدون ويشقون ويأملون أن
يعضى بهم جهادهم الى مرفأ الأحلام .

ثم يشرع المؤلف يعدنا لقمة الحوادث . فيأخذ جيليات
الى مسارب السكف النائية فيعثر على هيكل لمظام
رجل . ويستطيع جيليات أن يتعرف على صاحب الهيكل
بفضل منطقة تحمل اسمه . فهو هيكل ربان السفينة ،
كليبان . وكان قد ربط فى المنطقة ربطا محكما صندوق
حديدى به خمسة وسبعون ألف فرنك فيأخذ جيليات
المال ويعود كادحا . ستأخذ دروشيت صداقها ويأخذ
ليترى آلاته ويستطيع جيليات آخر الأمر أن ينقذ الآلات
ويستعد للمكافأة التى وعد ، وهى يد دروشيت .

يقترب فى المساء من المنزل الذى تقطنه الحسناء
فيسمع بلبلا يفنى . وكانت أغنية تصدح فى قلبه كذلك .
كانت دروشيت فى الحديقة لكنها لم تكن وحدها فان
معه القسيس الشاب الذى انقذ جيليات حياته وكانت

دروشيت والقسيس يتعانقان . فينكص جيليات على عقبيه ويتركهما لهواهما . وتتزوج دروشيت من حبيبها ويبهران الى انجلترا فيقف جيليات برقب السفينة على صخرة تقع على حافة الماء فيرتفع المد ويصل الى ركبتيه ثم كتفيه ثم فوق راسه . وهكذا تنتهى حياة أحد الكادحين فى البحر .

لكنه قد نال مكافأته . فهو الا يكن قد كسب يد دروشيت فقد كسب ما هو أهم من هذا بكثير ، وهو سعادة دروشيت .



نحن فى العيد الثمانين لميلاد هيجو . فنسمع أحد أصدقائه ينادى « زهور لابد من الزهور » ونرى الطريق المرح الذى يمتد بين نيس وباريس وقد حفت بجانبه احمال عربات وقطارات من الزهر . وطفى الزهر على منزله حتى طمره فعلا . ويرى خمسون ألف طفل ، هم ازهار حية جميلة . يفتنون ويرقصون تمجيدا للجد هيجو . ويمشى فى طرقات باريس نصف مليون من العمال يرددون النشيد المفضل عند هيجو (المارسييز) .

وأعقبت ذروة نصره هوة أساه . فما كاد يحتفل بعيد الثمانين حتى ماتت أعز صاحباته (جوليت) « انك ان مت فانى مقيم على حبك » كذلك كتب اليها قبيل النهاية « ولو أننى مت لأقمت على حبك برغم ذلك .. هل مت .. اذن ينبغى أن أموت .. » وبموت جوليت انتهت معيشة هيجو على الأرض ، واخذ يتوق الى حياة وراءها أعظم منها ، ولم يكن يخامره أدنى شك فى عظمة تلك الحياة .

« فلو انى موشك على سحق نملة ، فرأيتها قد ضمت
كفيها البائستين فى ضراعة لترفقت بها . فلمــا اذا
لا يرحمنى الله اذن . انى لاتوسل اليه ان يهب النعيم
المقيم لك . . . ولى . . . وللجميع . . . » .

« ونم يكن هيجو وحيدا مع أنه فقد حبيبته ، وحليلته،
وابناءه جميعا عدا واحدة هى اديل التى كانت مصابة
بجنون لا برء منه فقد كان يعيش بين أحفاده كان أشبه
بشجرة الباطوط يحيط بها نطاق من شجيرات صلبة ، فاذا أوشك
على تلقى دعوته الى السماء قال لهم « يا ملائكتى الظرفاء
ابى راحل عنكم ، فأنا أشعر أن الله ينادينى فأنا ذاهب
لارى ثانية صفارى الآخرين الذين فى السماء انكم لن
ترونى ثانية ، لكن سأكون معكم دائما ، قريبا اليكم ،
اقرب اليكم مما أنا الآن ، وسأبارككم كما أفعل الآن » .

ومات فى ٢ مايو وهو يوم سانت جوليا ، يوم يحمل
اسم جوليت ، وكان أصدقاؤه يتوقعون أن يدفن فى حفل
رسمى غير أنهم لم يدهشوا حين سمعوا رجاءه الأخير .

(أريد أن امنح . . . ر.ه.ه. فرنك للفقراء . . . وأريد أن
احمل الى القبر فى عربة الفقراء) وكتب فى نهاية هذا
الرجاء عبارة بسيطة تعبر عن إيمانه (انى أرفض
الصلوات التى تؤدى فى كل الكنائس فانى أؤمن بالله) .

فهرس

صفحة	
٧	المؤلفان
٩	مقدمة
١٣	مقدمة المؤلفين
١٥	جيو فاني بوكاشيو
٣٢	فرانسوا رابليه
٤٨	ميجل دي سرفانت
٧٥	جوناثان سويفت
٩٢	لورنس سترن
١٠٧	سير والتر سكوت
١٢٠	أونوري دي بلزاك
١٤١	اسكندر ديماس « الأب »
١٥٥	فيكتور ماري هيچو

العدد القادم من كتاب الهلال :

الجزء الثاني من
أعلام الفن القصصي

يصدر ٥ يناير سنة ١٩٧٩

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road

London S.E. 26

ENGLAND

انجلترا :

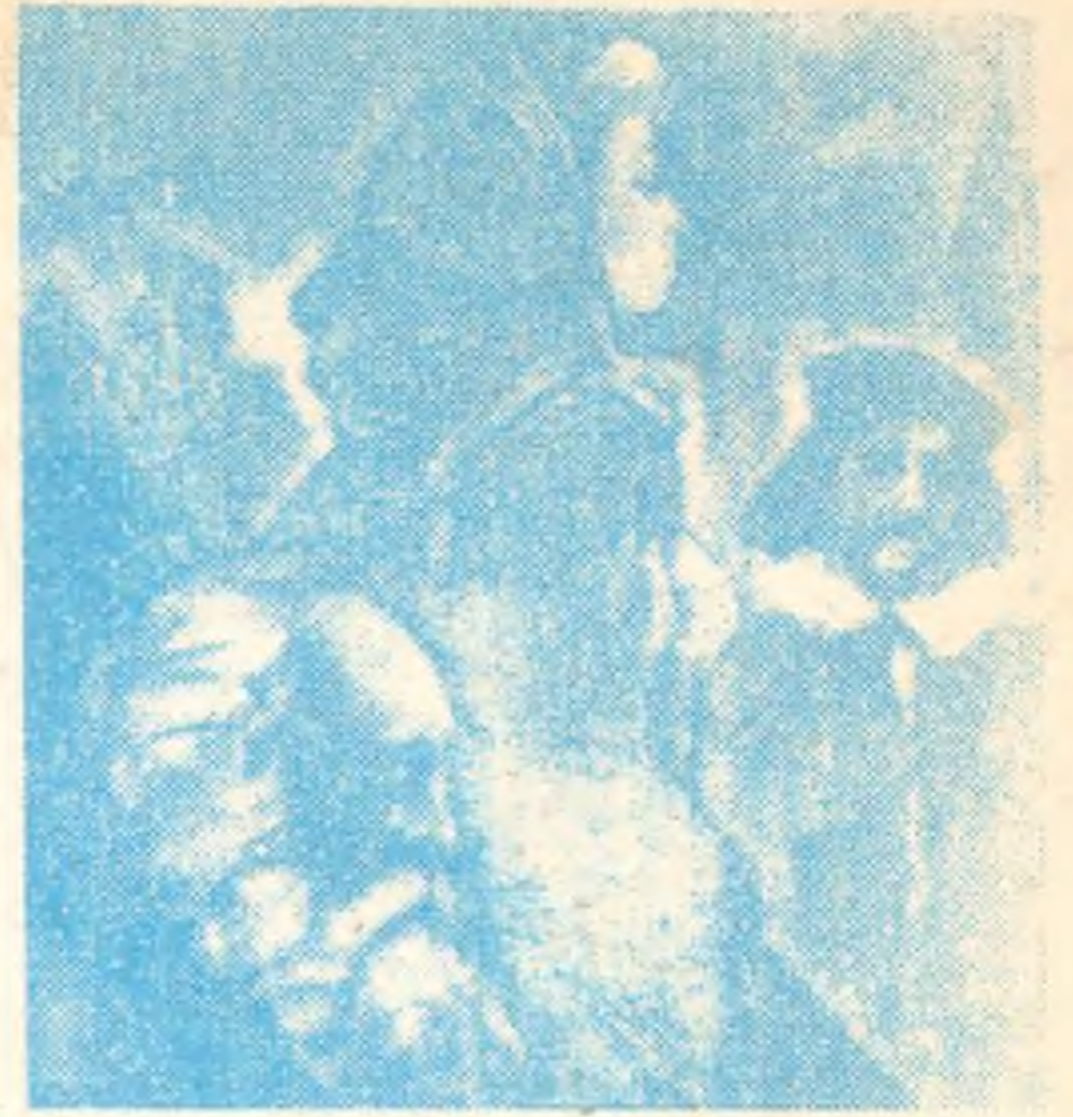
M. Miguel Maccul Cury.

B. 25 de Marac, 994

Caixa Postal 7406,

Sao Paulo. BRASIL

البرازيل :



هذا الكتاب

هذا الكتاب يشتمل على سير مجموعة كبيرة من أبرز كتاب القصة في العالم ، منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاسيو في القرن الرابع عشر حتى توماس هاردى في القرن العشرين . وهؤلاء الكتاب ينتمون الى مختلف الجنسيات . فمنهم الايطالى والاسبانى والانجليزى والفرنسى والروسى والأمريكى والايروندى . وقد صيغت سيرة كل كاتب في قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها ، تحمل في تضاعيفها لمحات من خير ما كتب صاحب السيرة . ويعتمد الكتاب في تصوير شخصيات الأعلام على الحقائق المادية وتناولها تناولا فنيا قصصيا بحيث تخرج الصورة شائقة نابضة بالحياة . كما روعى تقييمهم على ضوء ما ساد بلادهم على أيامهم من تقاليد ، وطرائق في العيش ، وأساليب في تناول الحياة .

ولم يقتصر الكتاب على تصوير أعلام القصة من الخارج يتراءون من خلال حقائق حياتهم ، بل عمد كذلك الى الداخل كما يتراءون من خلال أفكار عقولهم . ومن هذا المزيج ، وجدنا أن كل قصاص عظيم ، هو نفسه بطل لقصة

3
41
8
Bibliotheca Alexandrina



0210639

١٥ ق